

الفصل العشرون

المانيا في عهد فردريك

١٧٥٦ - ١٧٨٦

١ - فردريك المظفر

من هذا الغول الذي أثار الخوف والإعجاب دولياً ، والذي سرق سيليزيا ، وهزم نصف أوروبا المتحد ضده ، وهزأ بالدين ، وازدرى الزواج ، وأعطى فولتير دروساً في الفلسفة ، واقتطع بعض أوصال بولنדה ولو ليمنع روسيا من التهاماً كلها ؟

لقد بدأ أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزيناً منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (٣٠ مارس ١٧٦٣) بين تصفيق الجماهير المملقة . كتب إلى دارجنس يقول « إني أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار ، ولن أجد أحداً من معارفي ، حيث تنتظرني مهمة ضخمة ، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامي في مشوى لا تكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان »^(١) كانت بشرته قد جئمت وتغضنت ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين منتفختين ، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة ، وأنفه فقط هو الذي احتفظ بجلاله القديم . وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلاً بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلاً وأرادة ، ولكن زهده مد في أجله ثلاثة وعشرين عاماً آخر . كان مقلاً في طعامه وشرا به ، لا يعرف الترف ؛ يعيش ويلبس في قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان في المعسكر ، وكان يضمن بالوقت المخصص للعناية بشخصه ؛ وفي سنيه الأخير أقلع عن الحلاقة ، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين ؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً^(٢) .

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذى بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه . فكان يتطلع بهدوء رواقى بينما الجنود المحكوم عليهم يمرون ستاً وثلاثين مرة^(٣) بين صفيين من الرجال يجلدونهم . وكان يتعقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين ، والتدخل المفاجيء ، واللغة البذيئة ، والأجر الشحيح ، وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام . ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنرى الذى جد وأخلص فى خدمته فى الدبلوماسية والحرب . وكان له بعض الصديقات ، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببته ، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة انحصائه . كان يحترم المعاناة الصامتة التى عانتها ملكته التى أهملها ، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من ٢٥,٠٠٠ طالر ، ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فراشها إطلاقاً . ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذ رآته بطلاً فى الحن مخلصاً فى الحكم ، وكانت تشير إليه فى حديثها عنه بعبارة « ماكننا العزيز » و « هذا الملك العزيز الذى أحبه وأعبدته »^(٤) . ولم يكن له والد ، ولكنه كان شديد التعاق بكلابه ، وكان اثنان منها ينامان عادة فى حجرتة ليلاً ، ربما لحراسته ؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفنه بحرارة الحيوان . وعندما مات آخر كلابه الكثيره لديه « بكى اليوم كله »^(٥) . وقد ظن به اللواط^(٦) . ولكننا لانملك فى هذه الشبهة غير التخمين .

وعلى أنه كان يخفى تحت جلده العسكرى الصلب عناصر من الحنان نبدر أن كشف عنها أمام الناس . فقد بكى كثيراً لموت أمه ، وكان يرد على محبة أخته فلهلمينه الحارة بمحبة مخلصه . وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير الملحوظة . كان يضحك من عواطف روسو المفرطة ، ولكنه اغتفر له عداؤه وعرض عليه الملجأ حين نبذه العالم المسيحي . وكان يتنقل بين التدريب الصارم لجنوده وصغير الألقان من نايه . وقد ألف الصوناتات والكونشرتوات والسمفونيات التى شارك فى أدائها أمام حاشيته . وسمعه العالم يرنى هناك ، وقرر أنه عزف « بضبط شديد ، واستهلال صاف منسق ، ولعب بالأصابع بديع ، وذوق نقي بسيط ، ودقة بالغة فى التنفيذ ، إتقان

متساو في كل معزوفاته » ، على أن يرني يضيف إلى ما ذكر أنه في بعض الفقرات الصعبة ، . . . اضطر بجلالته - على عكس ما تقتضيه القواعد - أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة^(٧) (*) .

وفي سنوات لاحقة أكرهه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناي ، ولكنه استأنف دراسة الكلافير .

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى . كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستفز قواد الجيش . وكان ثابت القدم كفوفاً لفولتير في رسائله معه . وقد بقي على شكوكيته في حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة . وكان أول حاكم في العصور الحديثة يجهر بلادينيته ، ولكنه لم يهاجم الدين علناً . وذهب إلى أن « لدينا من درجات الأرجحية ما يكفي لبلوغ اليقين بأن « لاشيء بعد الموت »^(٩) ، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق ، وان في استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم^(١٠) أما أحب الفلاسفة إليه فهم (صديقي لوكريتيوس . . . وامبراطوري الطيب ماركوس أوريليوس) ؟ وعنده أن أحداً لم يضيف إليهما شيئاً ذا بال^(١١) .

وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن « الجاهير » تسرف في إنساها وتفرط في كدها بحيث لا يتسع لها الوقت للتعليم الحقيقي . ولن يجدي تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا في دفعها إلى العنف السياسي . وهو يقول في هذا « إن التنوير نور من السماء للواقفين على القمم ، وجمرة مدمرة للجاهير »^(١٢) ،

(*) في ١٨٨٩ نشر برايتسكوف وهرزل ١٢٠ قطعة موسيقية من تأليف فردريك الأكبر . وقد سجل عدد منها على أقراص . وقد أحييت سنفونيته في مقام D لنايين وأوركسترا في برلين عام ١٩٢٨ وفي نيويورك عام ١٩٢٩ . (٨)

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وإرهاب ١٧٩٣ قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية . وكتب إلى فولتير في أبريل ١٧٥٩ يقول « فلنعترف بهذه الحقيقة : إن الفلسفة والفنون والآداب لا تنتشر إلا بين قلة من الناس ، أما الجماهير العريضة ... فتظل كما جبلتها الطبيعة ، حيوانات شريرة حاقدة»^(١٣) وكان يسمى النوع الإنساني (في شيء من المزاح) . « هذا الجنس الملعون » — ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول :

« إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المحزنة إلى آخر الدهر ، لأننا محكومون بالعواطف ، ونادراً جداً بالعقل . وإن تنقطع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفاليس . . . وما دام الأمر كذلك ، ففي ظني أن هذا الوضع ضرورة لا بد منها . . . ولكن يلوح لي أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير خلقتنا أسعد مما نحن . . . إن العقل البشري ضعيف ، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لأصنف ضروب التعصب . فالخوف من الشيطان والجحيم يبهر عيونهم ، وهم يكرهون الرجل الحكيم الذي يحاول تنويرهم . . . وعبثاً ألتبس فيهم صورة الله التي يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها . إن في داخل كل إنسان وحشاً ، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه ، وأكثر الناس يرنحون له اللجام ما لم يكبحهم الخوف من القانون»^(١٤) .

وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث . فلكى تحيا الديمقراطية يجب أن تكون — كغيرها من نظم الحكم — أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية . وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن « الاستقرائية موجودة دائماً بين الأمم وفي الثورات»^(١٥) وآمن بأن. الاستقرائية الوراثة تربي الإحساس بالشرف والولاء ، والرغبة في خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة ، لا يمكن توقعها من نوابغ البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة .

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا في الجيش^(١٦) . ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعززين بعراقتهم قد يصبحون مصدراً للتفتت والفوضى ، وأداة للاستغلال ، إذن فلا بد من أن يحمى ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام ، ويدفع الظلم الطبقي عن عامة الشعب .

وكان فردريك يجب أن يصور نفسه خادماً للدولة والشعب . وربما كان هذا تبريراً لإرداة القوة فيه ، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه . فأضحت الدولة عنده « الكائن الأعلى » الذي يبذل في سبيله نفسه وغيره ؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية ؛ فالوصايا العشر تتوقف عند أبواب الملوك . ووافقته جميع الحكومات على هذه « السياسة الواقعية » ، وقبل بعض الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة . وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير ؛ ومن طريق الصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم « الملكية » ومؤداها أن الأمل الأكبر في الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك .

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين ، وهدأ من عداوتهم له ، حتى عداء روسو الفاضل . وقد رفض دالامبير طويلاً دعوات فردريك له ، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه . فكتب لفردريك يقول « إن الفلاسفة والأدباء في كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاي قائداً ومثالا لهم »^(١٧) وأخيراً أذعن الرياضي المتحفظ للدعوات المتكررة ، وأنفق شهرين مع فردريك في بوتسدام عام ١٧٦٣ . ولم تنتقص الألفة (والمعاش الذي أجراه عليه) من إعجاب دالامبير به . فقد أبهجه اغفال الملك لقواعد التشريفات ، وأطربته تعليقاته - لا على الحرب والحكومة فحسب ، بل على الأدب والفلسفة أيضاً ، وقال لجولي دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أى حديث يتاح للمرء سماعه آنثذ في فرنسا^(١٨) . فلما ابتأس دالامبير في ١٧٧٦ حزنا على موت جولي ، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول في ثوب الرجل الحكيم الخنون :

« يؤسفني الخطب الذي ألم بك . . . إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاماً . . . ولا شيء يبرئها غير الزمن . . . إن لي لسوء طالعي حظاً وفيراً جداً من الخبرة بالآلام التي تحدثها خسائر كهذه . وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً . . . وخلق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه . . . إن شيشرون أغرق نفسه في التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تليا . . . وفي مثل سنك وسنى خلق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسلوى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول » (١٩) .

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام « سوف نفلسف معاً تفاهة الحياة . . . وبطلان الرواقية . . . وسوف أشعر بالسعادة في تهذئة حزنك كأننى انتصرت في معركة . » هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة ، ان لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة .

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير ، ذلك أن خلافاتهما في برلين وبوتسدام ، والقبض على فولتير في فرانكفورت - كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن . وبقى الفيلسوف يعاني الألم والمرارة أطول مما بقى الملك . فأخبر الأمير دلين أن فردريك « لا قدرة له على عرفان الجميل ، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذي هرب على ظهره في معركة مولفتس » (٢٠) . ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين في القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولاً أن يثنى المحارب اليائس عن الانتحار . وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات . وذكر فولتير فردريك بالإهانات التي لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك ، وأجاب فردريك : « لولا صلتك برجل فتن حياً بعبقريتك الرائعة لما أفلتت بهذه السهولة . . . فاعتبر الأمر كله منتهياً ، ولا تذكر لي شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة » (٢١) . ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر :

« أتريد كلاماً حلواً؟ حسناً جداً ، سأخبرك ببعض الحقائق . إننى أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال ، إننى أعجب بشعرك ، وأحب نثرك . . . ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرهفة ، ولا مثل هذا

الدوق الأصيل الرقيق . . . إنك ساحر في حديثك ، تعرف كيف ترفه وتعلم في وقت واحد . إنك أكثر المخلوقات التي عرفتها إغواء . . . كل شيء في حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذي يجيء فيه إلى هذا العالم . وأنا وإن جئت متأخراً جداً ، إلا أنني لست بأسف على هذا ، لأنني رأيت فولتير ، . . . ولأنه يكتب لي « (٢٢) » .

وأعان الملك بتبرعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتي كالاس وسرفان ، وصدق للحرب التي شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L, infeme) ، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثقتهم في تنوير النوع الإنساني . فقد تنبأ بفوز الخرافة في السباق بينها وبين العقل . فتراه يكتب إلى فولتير في ١٣ سبتمبر ١٧٦٦ يقول :

« إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب . . . ولكن ما أكثر الحمقى الذين لا يعقلون في هذا العالم ! . . صدقني ، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضي نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة . . . قد يتغير موضوع العبادة ، كما تتغير الأزياء في فرنسا ؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير ، وأمام العجل أبيس ، أو أمام تابوت العهد ، أو أمام تمثال من التماثيل ؟ لا يهم الاختيار ، فالخرافة واحدة ، والعقل لا يكسب شيئاً » (٢٣) .

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية ، فحمى كل صورته السلمية بمنتهى التسامح . ففي سيليزيا التي غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج ، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب ، وكانت من قبل وقفاً على الكاثوليك . . ثم رحب باليسوعيين بصفتهم معلمين ذوى قيمة كبرى ، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأً تحت حكمه اللأدرى . وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملحدون ؛ وفي عهده وفي مملكته مارس كائناً حرية الكلام والتعليم والكتابة ، وهي الحرية التي لقيت أشد تعنيف وقضى عليها بعد موت فردريك . وفي ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين في بروسيا . ففي ١٧٨٠ كان هناك

كنسى واحد لكل ألف من سكان برلين ، وفي ميونخ ثلاثون (٢٤) . وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضى على الكاثوليكية عاجلاً . كتب إلى فولتير في ١٧٦٧ يقول « لا بد من حدوث معجزة لكي تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزمها ، فلقد أصيبت بسكتته دماغية خطيرة ، وسوف يموت في أجلك لتتغذى بدفنها وكتابة قبريتها» (٢٥) . ولكن أشد الشكاك غلواً في شكوكيته نسي لحظة أن يشك في الشكوكية .

٢ - إعادة بناء بروسيا

لم يكد حاكم في التاريخ في صناعة الحكم كما كد فردريك ، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثاني إمبراطور النمسا ، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق ، فيستيقظ عادة في الخامسة ، وأحياناً في الرابعة ، ويشغل حتى الساعة ، ثم يفطر ، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة ، ويستعرض حرس قصره ، ويتناول الغذاء في النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء ، ثم يعمل حتى الخامسة ، وعندها فقط يسترخى بالموسيقى والأدب الحديث . أما عشاء «نصف الليل» بعد الحرب ، فكان يبدأ في التاسعة والنصف ، وينتهي في الثانية عشرة ، ولم يسمح لأى روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه ، ولا لأى مراسم بلاطية بأن تثقله ، ولا لأى عطلات دينية بأن تقطع عليه كده ، وكان يراقب عمل وزرائه ، ويملي كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة ، ويرقب حالة الخزانة ، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات ، نحول له سلطة فحص أى مصلحة في أى وقت . وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أى شبهة مخالفة . وكان يعنف في معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومى الذى استشرى في كل بلد آخر من بلدان أوروبا .

وكان يعز بهذا العمل ، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار . بدأ بألوان من الاقتصاد في بيته أثارت السخرية من بلاطى النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان . فكان بيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفى . فصوان ملابسه لا يحوى غير حلة جندى ، وثلاثة معاطف قديمة ، وصدريات

متسخة بالنشوق ، ورداء رسمي لازمه طوال حياته . وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد ، لأن هذا المحارب آثر الشعر على الصيد . ولم ين أسطولا ، ولم يسع إلى تملك المستعمرات . وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة ، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذي احتفظ به في برلين حينما هو مقيم في بوتسدام . ومع ذلك فقد حكم إيرل تشستر فيلد عليه بأنه أكثر بلاط في أوربا أدباً وتألماً ونفعاً لشباب أن يوجد فيه ، « ثم أردف قائلاً : « ستري فنون الحكم وحكمته في ذلك البلد الآن (١٧٥٢) خيراً مما تراها في أي بلد آخر في أوربا » (٢٦) . على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد ما لسبري ، السفير البريطاني لدى بروسيا ، ربما لتعزية لندن ، يقول إنه « ليس في تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة » (٢٧) .

على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومي . فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجباري ؛ فهذا السلاح الذي في متناوله هو وحده الذي يتيح له صيانة وحدة أراضي بروسيا أمام أطماع جوزيف الثاني وكاترين الثانية . وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التي هيأت النظام والاستقرار للحياة البروسية . وقد أحس أن القوة المركزية هي البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع في أيدي الأفراد . وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة ، إلى طاعة بدافع الاعتياد على القانون — وهي قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت برائتها .

وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا في نظام قانوني واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال . وكانت هذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجي (١٧٥٥) وبنشوب الحرب ، فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص لـ ج. سفارينس ، واستكملت في ١٧٩١ . وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والتقنية ، ولكنه حاول في

هذه الحدود أن يحمى الفرد من الطغيان أو الظلم الخاص أو العام . فالغى المحاكم التي لاضرورة لها . وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها ، ونخفف العقوبات ، وصعب الشروط اللازمة للتعين في وظائف القضاء . وتقرر ألا ينفذ حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك ، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك . وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة ، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم في أوروبا (٢٨) .

وفي ١٧٦٣ أصدر فردريك النظام التعليمي العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامي الذي أعلنه أبوه في ١٧١٦ - ١٧ . فتقرر أن يذهب كل طفل في بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة . ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى ، وتعيينه قدامى الجند معلمين ، وجعله معظم التعليم يجرى بتدريب أشبه بالتدريب العسكري (٢٩) . وقد أضاف الملك : « من الخير أن يعلم المدرسون في الريف الأحداث الدين والأخلاق . . . وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة . . . ولا بد من تخطيط التعليم . . . بحيث يبقى عليهم في القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها » (٣٠) .

وحظى تجديد البناء الاقتصادي بالأولوية في الوقت والمال . فبدأ فردريك باستخدام المال الذي جمع من قبل لحملة حربية أخرى - زالت الحاجة إليها الآن - في تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة ، وتقديم البذور للزراعات الجديدة ؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش . وبلغت جملة المبالغ التي أنفقت على أعمال الإغاثة العامة ٢٠,٣٨٩,٠٠٠ طالمال (٣١) . وأعفيت سيليزيا التي اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر ؛ وبني فيها ثمانية آلاف بيت في ثلاث سنين ، وقدم مصرف عقارى المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة . وأسست جمعيات للتسليف في مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعي . وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى ، فهيأت أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل . وبعث المندوبون إلى الخارج الدعوة مهاجرين إلى بروسيا ، فجاء منهم ٣٠٠,٠٠٠ (٣٢) .

ولما كانت القنية تربط الفلاح بسيدته ، فإنه لم توجد في بروسيا حرية الانتقال إلى المدن ، تلك الحرية التي يسرت في انجلترا تطور الصناعة السريع . وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق . فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة ، وأجاز الاحتكارات المؤقتة ، واستورد العمال ، وفتح مدارس الصنائع ، وأنشأ مصنعاً للبرسلان في برلين . وناضل لينشىء صناعة الحرير ، ولكن أشجار التوت ذبلت في برد الشمال . وشجع التعدين النشط في سيليزيا الغنية بالمعادن . وفي ٥ سبتمبر ١٧٧٧ كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول : « انى عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله . . . فقد بعنا للأجانب ما قيمته ٥,٠٠٠,٠٠٠ كراون من التيل ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ كراون من القماش . . . وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريومور»^(٣٣)

وتسهيلاً للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ ، وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة . أما التجارة الخارجية فقد عاقتها الرسوم المرتفعة على الواردات والحظر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية ؛ واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعى فى الحرب . ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة : ففي ١٧٢١ كانت تضم من السكان ٦٠,٠٠٠ ، وفي ١٧٧٧ زادوا إلى ١٤٠,٠٠٠^(٣٤) . لقد كانت تتهيأ لتصبح عاصمة لألمانيا .

والكى يمول فردريك هذا المزيج من الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والأوتقراطية ، اقتضى شعبه من الضرائب قدرأ يقرب مما رد عليهم من نظام اجتماعى وإعانات مالية وأشغال عامة . واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد ١٧٨١) ، وامتلك ثلث الأرض الصالحة للزراعة^(٣٥) . وفرض الضرائب على كل شىء ، حتى على المغنين الجائلين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً فى جمع الضرائب . وكتب

سفير انجليزى يقول : « ان مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من ملكهم »^(٣٦) . وقد ترك فردريك عند موته فى خزانة الدولة ٥١,٠٠٠,٠٠٠ طالر . وهو ما يعادل إيراد الدولة السنوى مرتين ونصفا .

وفى ١٧٨٨ نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلاً مدمراً عنوانه « فى النظام المالكى البروسى تحت حكم فردريك الأكبر » . وكان قد ورث عن أبيه مبادئ الفزيوقراطيين التى تنادى بالمشروعات الحرة ، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية ، وبيرقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية . وكان فى وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة «عدم التدخل Laissez Faire» فى حالة الفوضى التى ضربت أطنابها فى بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفسدت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية . لقد كان التوجيه أمراً حتمياً ، وكان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيادة الفعالة ، وهو لا يعرف شكلاً من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربى لجنوده . لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهيار ، ودفع الثمن بفقدانه حب شعبه له ؛ وقد فطن إلى هذه النتيجة ، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية :

« إن البشر يتحركون إذا حثتهم على الحركة ، ويقفون إذا كفتت عن دفعهم . . . والناس مقلون فى القراءة ، زاهدون فى أن يتعلموا كيف يمكن التصرف فى أى شىء بطرق مختلفة . أما أنا ، أنا الذى لم أصنع بهم قط غير الخير ، فهم يظنون أنى أريد أن أضع سكيناً على حلقهم بمجرد أن يلوح احتمال إدخال أى تحسين مفيد ، لا بل أى تغيير على الإطلاق . فى مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفى وسلامة ضميرى ، وعلى المعلومات التى أملكها ، ثم مضيت فى طريقى هادئاً »^(٣٧) .

وقد انتصرت إرادته . فازدادت بروسيا حتى فى حياته غنى وقوة . وتضاعف عدد سكانها ، وانتشر فيها التعليم ، وأخفى التعصب الدينى رأسه . صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستنير ، وأن هذا الاستبداد

بقى بغير الاستنارة بعد أن مات فردريك ، وأن الهيكل القومى اعتراه الضعف وانهار فى فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتا . ولكن الصرح النابليونى أيضاً ، الذى اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره ، انهار هو أيضاً ، وفى خاتمة المطاف كان بسمارك ، وريث فردريك والمستفيد البعيد فى تركته ، هو الذى عاقب فرنسا التى سيطر عليها وريث نابليون ، وهو الذى جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هى ألمانيا .

٣ - الإمارات

لندكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن فى القرن الثانى عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً ، قبلت صورياً الإمبراطور « الرومانى المقدس » فى فيينا رأساً لها ، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطورى (رايشستاغ) ، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب ، واحتمال عبء المراسم ، وانتخاب إمبراطور جديد . وكان للدول لغة وآداب وفنون مشتركة ، ولكنها تباينت فى العادات والزى والعملة والعقيدة . وكان فى هذا التفتت السياسى بعض الفوائد : فتعدد بلاطات الأمراء كان موافقاً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً ؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلا من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوربا ؛ ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسطاً كبيراً من التسامح فى الدين والعادات والقانون . وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية ، لأن المذهب البروتستنتى كرس « حق الملوك الإلهى » . أما فردريك ، الذى لم يقر بأى حق إلهى غير حق جيشه ، فقد سخر من « معظم الأمراء الصغار ، لاسيما الألمان منهم » الذين « يدمرون أنفسهم بالإشراف السفيه إذ يضلهم الوهم بعظمتهم المتصورة ، فأصغر ابن لأصغر ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر ، فيبنى فرساياه ، ويقتنى الخيليات ، ويحتفظ بجيش . . . له من القوة ما يكفى لخوض . . . معركة على مسرح فيرونا » (٢٨) .

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا . وقد دالت دولة فيها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثاني مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر ، فقصف الملك القاسى درسدن ودمرها عام ١٧٦٠ وفر الناخب إلى بولنده بصفته ملكها أوغسطس الثالث ، ثم مات في ١٧٦٣ . وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناخبة وهو في الثالثة عشرة ، واكتسب لقب (العادل) ، وحول سكسونيا إلى مملكة (١٨٠٦) ، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (١٨٢٧) .

ويدخل كارل أويجن ، دوق فورتمبرج ، قصتنا في المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدواً لشيلىر . وقد فرض الضرائب على رعاياه ببراعة لا ينضب معينها ، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا ، واحتفظ ببلاط كان في رأى كازانوف « ألمع بلاط في أوربا »^(٣٩) ، حوى مسرحاً فرنسياً ، وأوبرا إيطالية ، وسلسلة من المحظيات . ويعيننا أكثر منه في قصتنا كارل أوجسط ، دوق ساكسى - فايمار الحاكم من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٨ ؛ ولكننا سنراه في مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أناروا سماء ملكه - فيلاند ، وهردر ، وجوته ، وشيلىر . وكان واحداً من فريق « المستبدين المستنيرين » الصغار الذين ساهموا في هذا العصر في نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذى ضربه فردريك . ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وترير وماينز وفورتزبورج - بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات ، وخدمهم من إسراف البلاط ، وتخفيفهم من الفوارق الطبقيّة ، وإصلاحهم السجون ، وتقديمهم الإعانات للفقراء ، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة . كتب آدموند بيرك يقول « ليس من السهل أن نجد أو نتصور حكومات أكثر اعتدالاً وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية »^(٤٠) .

على أن الفوارق الطبقيّة كانت تؤكد في أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعى . فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة ، وداخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المرتبة

الأدنى منها . وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلاً تقريباً ، ولكن بعض التجار والماليين اشتروا النبالة . واحتكر النبلاء المناصب العليا في الجيش والحكومة ، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين كانوا عالة على المجتمع ، لا يفضلون الحلال التي يرتدونها ، يتنافسون على المكان الاجتماعي المقدم في البلاط ، ويتبعون المواضع الفرنسية في اللغة والفلسفة والتحليلات .

ومما يذكر بالفخر لأمرأء ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام ١٧٨٠ حتى كانوا قد اعتقوا فلاحهم الأبقان ، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء في الريف . وقد ذهب رانيهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل - أكثر بساطة ووداً وفطرية - من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كباراً (٤١) . وقد صورت سيرة هيريش يونج الذاتية (١٧٧٧) حياة القرية في كدها اليومي وفي مهرجاناتها الموسمية في صورة مثالية ؛ ووجد هرذر أغاني الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب ؛ ووصف جوته في كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه « يغمر بالفرح إقليماً بأسره » من صواريخ وغناء ونييد (٤٢) . كان هذا جانباً من المشهد الألماني ؛ أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشخن في الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسمال ويتسولون في الشوارع . قالت إيفا كونيغ لليسنج في ١٧٧٠ « في إحدى المحطات تزاحم حولي ... ثمانون شحاذاً ... وفي ميونخ جرت ورأى أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأني بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً » (٤٣) .

لقد كانت الأسرة في القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة . أو المدرسة . وكان البيت الألماني المصدر والمركز للتهديب الخلقى ، والنظام الاجتماعي ، والنشاط الاقتصادي . ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً ، ويلوذ بأم محبة ، ويشارك في سن مبكرة في مختلف الواجبات البناءة التي تملأ فراغ اليوم . وقصيد شيلر « أغنية الجرس » تعطينا صورة مثالية ترى فيها « الزوجة الشديدة التواضع ... تحكم دائرة الأسرة بحكمة ، وتدرّب

البنات ، وتكبح تهور الأولاد ، وتعكف في كل لحظة من فراغها على نولها» (٤٤) . وكانت الزوجة خاضعة لزوجها ، ولكنها معبودة أبنائها . أما خارج البيت ، إلا في قصور الأمراء ، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية ، ومن ثم كان حديثهم ينحو إلى الأملال أو البذاءة . أما في قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك . ويرى إكرمان أن بعضهن « يكتبن بأسلوب رائع ويفقن في هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا» (٤٥) . وكان على نساء الطبقة العليا في ألمانيا ، كما في فرنسا ، أن يتعلمن الأغماء جزءاً من بضاعتهم ، والاستعداد لذرف الدموع دليلاً على رقة شعورهن .

أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية في الشراب والقمار والفسق والطلاق . تقول مدام دستال إن النبيلات من النساء كن يبدلن أزواجهن « في غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداثاً تمثيلية » ، وكن يفعلن هذا « بقليل من مرارة النفس» (٤٦) . وضرب الأمراء المثل في السلوك اللاأخلاقي ببيع جنودهم للمحكّام الأجانب ؛ وهكذا بنى حاكم هسي - كاسل قصرأ أنيقاً ، وأنفق على بلاط مترف ، من حصيلة تجاره في جنوده . وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان - أو ما « أقرضوه » على حد تعبيرهم - خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندي لانجلترا مقابل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ ومن هؤلاء ١٢,٥٠٠ لم يعودوا قط (٤٧) . ولم يبد ألمان القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلاً يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر . ويبدو أن « الخلق القومي » يمكن أن يطرأ عليه التغيير من قرن لآخر .

وكان الدين في ألمانيا أطوع للدولة منه في الأقطار الكاثوليكية . كان منقسماً إلى ملل ونحل ، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه ؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير ، ودخل الدين يعتمد على دشيئته . وكان إيماناً قوياً في الطبقتين الوسطى والدنيا ؛ ولم يتأثر بموجات الإلحاد التي تدفقت من انجلترا وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس . وكان إقليم الراين أكثره من الكاثوليك ، ولكن في هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى سيطرة البابوات في جرأة .

وبيان ذلك أنه في ١٧٦٣ نشر يوهان نيكولاوس فون هونتاييم ، أسقف
تريير المساعد ، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فبرونيوس ، رسالة
باللاتينية في « حالة الكنيسة ، وسلطة البابا روما الشرعية » وترجم الكتاب
من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وأحدث
ضجة في جميع أرجاء غربي أوروبا . وقد قبل « فبرونيوس » سيادة البابا ،
ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية ؛ فالبابا غير معصوم ، وينبغي
أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية
في الكنيسة . وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للبلاط البابوي
(الكيوريا) ، - وألمح إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن
حركة الإصلاح البروتستنتي . ؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى
أحضان الكنيسة الكاثوليكية . وفي مسائل القانون البشري ، لا الإلهي ،
يحق للألمان أن يرفضوا طاعة البابوية ، ولهم - إن لزم الأمر -
حق فصل كنائسهم القومية عن روما . وأدان البابا الكتاب (فبراير ١٧٦٤) ،
ولكنه أصبح « كتاب صلاة للحكومات »^(٤٨) وقد رأينا تأثيره على يوزف
الثاني .

ومال رؤساء أساقفة كولون وتريير وماينز وسالزبورج لآراء
« فبرونيوس » ، فقد رغبوا في الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات
الأخرى عن الامبراطور . وعليه في ٢٥ سبتمبر ١٧٨٦ أصدروا « بيان
إيمس التمهيدى » (قرب كوبلنتز) الذي كان خلية بأحداث حركة إصلاح
بروتستنتي جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ :

« إن البابا أعلى سلطة في الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها . . . ولكن
الامتيازات (البابوية) التي لا تنحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هي
مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة ، والتي تنتقص من قدر الأساقفة . . .
لم يعد في الإمكان أن تعد قانونية ، فهي تنتمي إلى اغتصابات الكيوريا
الرومانية ؛ والأساقفة الحق (مادامت الاحتجاجات السلمية لا تجدى)
في صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الامبراطور الألماني - الروماني .

و يجب ألا يكون هناك بعد اليوم أى استثناءات (من الأساقفة) أمام روما . .
و ألا تتلقى الطرق (الدينية) أى توجهات من رؤساء أجناب ، ولا أن تحضر
مجامع عامة خارج ألمانيا . ويجب ألا ترسل أية تبرعات لروما . . . و ألا
تملأ روما الوطائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول ، بل تملأ بانتخاب قانونى
للمرشحين الوطنيين . . . وينبغى أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قومى
ألمانى» (٤٩) .

ولم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية ،
ثم أنهم ترددوا فى الاستعاضة عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان
المباشرة والأصعب تفادياً . وهكذا انهارت الثورة الوليدة . و عدل هونتهايم
عن أقواله (١٧٨٨) ، وسحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدى (١٧٨٩) ،
وعادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى .

٤ - عصر التنوير الألمانى

ولكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم ، باستثناء الإمارات الكنسية ،
كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة . فأستاذة الجامعات
تعيينهم الحكومة وتدفع رواتبهم (فى تقدير مخجل) ، ولهم وضع الموظفين
العموميين . ومع أن جميع المدرسين والطلاب كان يشترط عليهم الإقرار
بأنهم يدينون بمذهب الأمير ، إلا أن الكليات الجامعية ، حتى سنة ١٧٨٩ ،
كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية . وحلت الألمانية محل
اللاتينية لغة للتعليم . وكثرت المقررات الدراسية فى العلوم والفلسفة ، وتوسع
فى تعريف الفلسفة (فى جامعة كونيغزبرج على عهد كانط) بأنها « القدرة
على التفكير ، وعلى البحث فى طبيعة الأشياء دون تغرضات أو مذهبية » (٥٠) .
وقد طلب كارل فون تسيدلتس وزير التربية المخلص فى عهد فريدريك الأكبر ،
إلى كانط أن يقترح طرقاتاً « لئلا يصد الطلاب فى الجامعات عن دراسات « أكل
العيش » . وإفهامهم أن التقليل الذى يتعلمونه من القانون ، لا بل اللاهوت
والطب . سيكون أيسر استيعاباً وآمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة
الفلسفية » (٥١) .

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعي ، وإنها لقصة مبهجة تلك التي روى فيها إكرامان كيف كان جيرانه الرحاء يمدون إليه يد المعونة في كل خطوة من خطى تطوره (٥٢) . ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية (٥٣) . فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أى رسم يستطيع جمعه من المستمعين ، وقد بدأ كانظ حياته المهنية على هذا النحو ؛ وكانت منافسة المعلمين الجدد لقداماهم تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين في كل لحظة . وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها « أرقى الجامعات علماً في أوروبا . فليس في أى قطر ، ولا حتى في إنجلترا ، وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء بقدرات الإنسان إلى الكمال . هـ . ومنذ عصر الإصلاح البروتستنتى تفوقت الجامعات البروتستنتية على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه ، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبي وفخرها على هذه المعاهد » (٥٤) .

وانتشر الإصلاح التعليمى وشاع في الجو . فأصدر يوهان بازدوا - مستلهماً قراءته لروسو - في ١٧٧٤ كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه « المبادئ » رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة ؛ فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمارين الرياضية ؛ وأن يتاقوا الكثير من تعليمهم في الهواء الطلق بدلاً من أن يلزموا مكاتبهم ؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التي يصادفونها في خبراتهم اليومية ؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها ؛ وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما . والدين يدخل في المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة ؛ وكان بازدويتشك في عقيدة التثليث جهاراً (٥٥) وأنشأ في دساو (١٧٧٤) معهداً خبيرياً نموذجياً أخرج تلاميذ ، صدمت الكبار « وقاحتهم ، وسلطتهم ، وسعة علمهم وخيالهم » (٥٦) ، ولكن هذا « التعليم التقدمى » ، كان متسقاً مع حركة التنوير ، فانتشر سريعاً في طول ألمانيا وعرضها .

وكانت التجارب في مضمار التعليم جزءاً من الاختمار الفكرى الذى

اضطربت به البلاد بين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية . فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتنقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة . وانبثقت الحركات الأدبية العديدة ، ولكل منها أيديولوجيتها ومجالاتها وقادتها . وكانت أول جريدة يومية ألمانية « داي لپتزوج ديتونج » قد بدأت عام ١٦٦٠ ، فلم يحل عام ١٧٨٤ حتى كان هناك ٢١٧ جريدة يومية وأسبوعية في ألمانيا . وفي ١٧٥١ بدأ ليسنج محرر القسم الأدبي من « فوسياك ديتونج » في برلين ؛ وفي ١٧٧٢ أصدر ميرك وجوته وهردر « أنباء فرانكفورت الأدبية » ؛ وفي ١٧٧٣ - ٨٩ جعل فيلاندر من « در تيوتش مكر » أكثر المجلات الأدبية في ألمانيا نفوذاً . وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألماني في ١٧٧٣ ، وستة آلاف في ١٧٨٧ ، وفي لپتزوج وحدها ١٣٣ . وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت . وربما كان ليسنج أول ألماني تعيش من الأدب سنين كثيرة . وكان جل المؤلفين فقراء ، لأن حق التأليف لم يحتمهم إلا داخل إماراتهم ؛ وانخزلت الطبوعات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء انخزالاً شديداً . وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برليشنجن وكان ربحه ضئيلاً من قصته « آلام فرتر » ، وهي أعظم انتصار أدبي لذلك الجيل . ويعد تفجر الأدب الألماني أحد الأحداث العظيمة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فحين كتب دالامبير من بوتسدام في ١٧٦٣ لم يجد في المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر^(٥٧) ؛ ولكن ما وافى عام ١٧٩٠ حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسا بل ربما تنزها في العبقرية الأدبية المعاصرة . وقد لاحظنا احتقار فردريك للغة الألمانية لأنها جشاه غليظة تؤذيها الحروف الساكنة ؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه ، بهزيمة الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه ، قد ألهم ألمانيا العزة القومية التي حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً للأمثال فولتير وروسو . فلم يحل عام ١٧٦٣ حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأضحيت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألماني .

ولم يكن هذا التنوير وليدأ بتوليا . فهو الثمرة المؤلمة التي تمخضت عنها الربوبية الانجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسي

على أرض مهدها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة . وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التي فجرها تولاند وتندال وكولتز ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام ١٧٤٣ ، وما وافى عام ١٧٥٥ حتى كانت « رسائل » جريم تبت أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان . وتوفر في ١٧٥٦ من أحرار الفكر في ألمانيا نقرأ أتاح إصدار « معجم لأحرار الفكر » . وفي ١٧٦٣ - ٦٤ أصدر بازدوف كتابه (محبة الصديق) الذي رفض أي وحى إلهي غير وحى الطبيعة ذاتها . وفي ١٧٥٩ بدأ كريستيان فريدرش نيقولاى ، وهو تاجر كتب برليني ، « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » ؛ وقد ظلت هذه الرسائل التي أثرت مقالات بأقلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام ١٧٦٥ مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف في الأدب والسلطة في الدين .

وشاركت الماسونية في الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج في ١٧٥٣ ، ووتلته محافل أخرى ؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دوق ساكسى - فايمار ، وايسنج ، وفيلاندا ، وهردر ، وكلويشتوك ، وجوته ، وكلايست . وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، ولكنها تحاشت النقد العلني للإيمان التقليدي . وفي ١٧٧٦ نظم آدم فايسهاويت ، أستاذ القانون الكنسى في إنجولشتات ، جمعية سرية شقيقة ، سماها « برفكتيبيلستن » ، ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستنيرين) وقد اتبع مؤسسها ، وهو يسوعى سابق ، المنهج الذي جرت عليه جماعة اليسوعيين ، فقسم رفاقها إلى درجات من الاطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم في حملة « لتوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل » ، ولجعل الإنسان « آية من آيات العقل ، فيبلغ بذلك أسنى درجات الكمال في فن الحكم » .^(٥٨) وفي ١٧٨٤ حضر كارل تيودور ، ناخب بافاريا ، جميع الجمعيات السرية ، فلقبت « طائفة المستنيرين » حتفها في سن مبكرة .

وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس . فطبق يوهان سمير أستاذ الفلسفة

في هاله « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس . فزعم (على العكس تماماً من الأسقف فاربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله ، لأنه - إلا في مرحلته الأخيرة - تجاهل الخلود . وألمع إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذي لم ير المسيح قط ؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان في بلوغ حياة فاضلة . فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السني ، واحتفظ بكرسي اللاهوت من ١٧٥٢ إلى ١٧٩١ . ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط . « مثل موسى ، وكونفوشيوس ، وسقراط ، وسملر ، ولوثر ، ومثلي أنا » (٥٩) كذلك سوى يوهان إيبهارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، ولكن فريدريك عينه أستاذاً للفلسفة في هاله . وقسيس آخر يدعى ف . أ . تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسة أي إنسان مؤمن بالله ، بما في ذلك اليهود (٦١) ، أما يوهان شولتز ، الراعي اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير في الله أكثر من « الأساس الكافي للعالم » (٦١) ، وقد طرد من وظيفته في ١٧٩٢ .

هؤلاء المهترقون المفصحون عن هرطقاتهم كانوا قلة قليلة ؛ ولعل المهترقين الصامتين كانوا كثيرين . أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل ، وكان الدين في ألمانيا أقوى كثيراً منه في إنجلترا أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين ، فإن التنوير الألماني لم يتخذ صورة متطرفة . ولم يسع إلى تدبير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين - وهي أمور جعلت الكاثوليكية في فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد لجماعة الفلاسفة ، وقد فطن العقلانيون الألمان - وهم يتبعون روسو لافولتير - إلى ما للدين من إغراء قوى للعناصر العاطفية في الإنسان ؛ ثم إن النبلاء الألمان ، الأقل جهرًا بارتيابيتهم من الفرنسيين ، ساندوا الدين معواناً للأخلاق والحكم . وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية ، ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ما كانه فولتير من قبل لفرنسا .

٥ - جوتتهولت ليسنج

١٧٢٩ - ٨١

كان جده الأعلى عمدة لبلدة في سكسونيا ، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كامينتس ، وكتب دفاعاً عن التسامح الديني ؛ وكان أبوه الراعي اللوثرى الأول في كامينتس ، وكتب دروساً في تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب . أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذي تقلد أبوه من قبل منصب الراعي لكنيستته . وكان تصرفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية ، وطبيعياً منه بعد أن أتحم بالتقوى أن يتمرد .

وكان تعليمه المبكر في البيت وفي مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألماني والآداب الكلاسيكية ، ومن اللاهوت اللوثرى والكوميديا اللاتينية . يقول « كان تيوفراستوس ، وبلاوتوس ، وترينس ، عالمي الذي درسته بابتهاج » (٦٢) ، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى ليبزج على منحة دراسية . فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة ؛ وانغمس في بعض حماقات الشباب ، وعشق المسرح ووقع في غرام إحدى الممثلات ، وسمح له بالدخول وراء الكواليس ، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحي . وفي التاسعة عشرة كتب تمثيلية ، ووفق في جهوده فأخرجت . فلما سمعت الأم نبأ هذه الخطيئة بكّت ، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً . ولكنه سرى عنهما بابتساماته ، وأقنعهما بسداد ديونه . وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بديئة إلى حد مذهل وأحرقها ؛ فرمى ثلجاً في صدرها ليخفف من حماستها . ثم أعيد إلى ليبزج ليدرس الفلسفة ويصبح أستاذاً ، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة ، واقترض ديوناً عجز عن الوفاء بها ، ثم هرب إلى برلين (١٧٤٨) .

هناك عاش حياة الأديب الذي يلتقط رزقه يوماً بيوم - يراجع الكتب ، ويترجم ، ويشترك مع كريستوب ميايوس في تحرير مجلة مسرحية لم تعمر . وما إن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر . فقرأ سبينوزا ووجدته برغم هندسته لا يقاوم . وألف مسرحية (١٧٤٩) عنوانها

« الروح الحر » ، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف ، وأدرست
الحر التفكير الحشن الصخب الذي تغلب عليه إلى حد ما صفات الأوغاد .
هنا انتصرت المسيحية في الجدل . ولكن في هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج
لأبيه يقول « ليس الإيمان المسيحي بالشيء الذي ينبغي للمرء أن يتقبله من
أبيه بتسليم » (٦٣) وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت
الزواج بين المسيحيين واليهود . فهنا عبراني غني شريف لا اسم له إلا
« المسافر » . ينقل حياة نبيل مسيحي وابنته ، فيعرض النبيل عليه الزواج من
ابنته مكافأة له ، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميظ اليهودي اللثام عن
حقيقة جنسه ؛ ويوافق اليهودي على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد . ولم
يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذي رأى فيه تجسيدا للفضائل التي كان
قد نحلها على « المسافر » إلا بعد خمس سنين (١٧٥٤) وذلك أثناء مباراة
للشطرنج .

وفي بواكير عام ١٧٥١ كلف فولتير أو سكرتيره ليسنج بأن يترجم
إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها في دعوى رفعها على
أبراهام هيرش ، وسمح السكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب
فولتير « قرن لويس الرابع عشر » . وفي تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب
ليسنج إلى فتنبرج وأخذ المخطوط معه . وخشى فولتير أن تستعمل هذه النسخة
غير المصححة في إصدار طبعة مسروقة ، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلاً
بأسلوب مهذب ليرد الأوراق . واستجاب ليسنج ، ولكنه أنكر النعمة
المتعجلة ، وربما كان هذا سبباً في تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير
ونخلقه .

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فتنبرج عام ١٧٥٢ . فلما عاد
إلى برلين شارك في دوريات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابي
والأسلوب اللاذع ، فما حل عام ١٧٥٣ حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا
من الكثرة حداً يلتمس له معه العذر في أن ينشر وهو في الرابعة والعشرين
طبعة جمعت كل أعماله في ستة مجلدات . وقد اشتملت على تمثيلية جديدة
اسمها « الأنسة سارة سامبسن » كانت من معالم تاريخ المسرح الألماني . وكان

المسرح الألماني إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية ، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية . لذلك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيليات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الإنجليزية ويكتبوا مآسيهم هم . وامتدح ديدرو لدفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى ، ولكن تمثيلية « الأنسة سامبسن » استوحاها من إنجلترا - من « التاجر اللندني » لجورج ليللو (١٧٣١) و « كلاريسا » لصموئيل رتشر دسن (١٧٤٨) .

ومثلت المسرحية في فرانكفورت - على - الأدور عام ١٧٥٥ ، ولقيت قبولا حسناً . وقد احتوت كل عناصر الدراما ؛ بدأت بإغواء ، واختتمت بانتحار ، ووصلت إلى بنهر من الدموع . والوغد مليفونت (الخلو المظهر) هو لفليس في قصة رتشر دسن ؛ تمرس بسلب الفتيات بكارتهن ، ولكنه يستنكر الزواج بواحدة ؛ يعاد سارة بالزواج - ويهرب معها ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ، ثم يسوف في الزواج ؛ وتحاول خلية سابقة له أن تسترده ، وتحقق ، فتدس السم لسارة ، ويصل أبو سارة ، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل مليفونت صهرًا له ، ولكنه يجد ابنته تحتضر أما مليفونت فينتحر مخالفاً بذلك طبيعته ، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساخرة : إن الأبطال في المآسي لا يموتون من شيء إلا من الفصل الخامس (٦٤) .

ونخيل إليه أن في استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح ، ولما لم يكن في برلين مسارح فإنه رحل إلى ليبزج (١٧٥٥) ثم اندلعت حرب السنين السبع ، فأقفل المسرح ، وكسدت سوق الكتب ، وبات ليسنج مفلساً . فعاد إلى برلين ، وشارك في مجلة نيقولاى « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » بمقالات سجلت قمة جديدة في النقد الأدبي الألماني . تقول رسالته التاسعة عشرة « إن القواعد هي ما يشاء أساتذة الفن مراعاته » وفي ١٧٦٠ غزا الجيش النمساوى الروسى برلين ، ففر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسى . وخلال السنين الخمس التي أقامها هناك اختلف إلى الحانات ، وقامر ، ودرس سبينوزا ، وآباء المسيحية القدامى ، وفنكلمان ، وكتب « لا وكون » . ثم عاد إلى برلين في ١٧٦٥ . وفي ١٧٦٦ دفع بأشهر كتبه إلى المطبعة .

وهذا الكتاب « لاوكون ، أوعلى التخوم بين التصوير والشعر » استلهم حافظه المباشر من كتاب فنكلمان « أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية في التصوير والنحت » (١٧٥٥) . وبعد أن كتب ليسنج نصف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » (١٧٦٤) ، فقطع بحثه وكتب يقول ، « لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان في تاريخ الفن . ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب » (٦٥) واتخذ نقطة انطلاقه من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقي الكلاسيكي متمثلاً في الوقار الهادئ والفضامة المطمئنة ، ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشتباه لاوكون ، كاهن أبولو في طروادة ، في أن هناك يونانيين يختبئون في « حصان طروادة » ، فقدفه برمح ، ولكن الإلهة أثينا المحابية لليونان أقنعت بوسيدن أن يطاع من البحر ثعبانين ضخمين التما حول الكاهن وولديه التفافاً قابلاً) . وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون - التي تعد الآن عملاً من أعمال نحّاتين رودسيين في القرن الأخير قبل المسيح - تنتمي إلى عصر فيدياس الكلاسيكي .

أما لماذا خلع فنكلمان ، الذي شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض . وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط (٦٦) . ووافق على أن المثال يخفف من تعبير الألم ؛ ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفني ، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلي الأصيلة الصحيحة .

ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقي سيمونيديس إن « التصوير شعر صامت ، والشعر تصوير بليغ » (٦٧) . وأضاف أن الإثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية : فالتصوير والنحت ينبغي أن يصفيا الأشياء في المكان ، لأن يحاولا قص قصة ، أما الشعر فينبغي أن يروي أحداثاً في الزمان ، لأن يحاول وصف أشياء في المكان . وينبغي أن يترك الوصف المفضل للفنون التشكيلية ، فإذا ورد في الشعر ، كما في « فصول » طرمسن أو « ألب » هالر ، قطع السرد وشوش الأحداث . « ومعارضة هذا الذوق الفاسد

ومناقضة هذه الآراء التي لا أساس لها ، هو الهدف الرئيسي للملاحظات التالية» (٦٨) . واكن سرعان ما نسي ليسنج هذا الهدف ، وتاه في نقاش مستفيض لكتاب فنكلمان في تاريخ الفن . هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية ، وكان لتمجيده الجمال المثالي باعتبارها هدف الفن أثر معطل على التصوير الألماني . ثم إنه خلط بين التصوير والنحت ، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت في المقام الأول ، وبهذا شجع شكلية أنطون رفاثيل منجز الجامدة . بيد أن أثره على الشعر الألماني كان بركة ؛ فقد حرره من الأوصاف المسهبة ، والنزعة الوعظية المدرسية ، والتفصيل الممل ، وأرشده إلى الحركة والشعور . وقد أقر جوته شاكراً بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج « لاوكون » .

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (ابريل ١٧٦٧) إلى همبورج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر في العام . وهناك أخرج تمثيليته الجديدة . « منا فون بارنهيلم » . وبطل التمثيلية - الميجر ثلهام - العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحساء الغنية . غير أن الحظ الذي قلب له ظهر المجن ، والدسائس المعادية التي لاحقته ، يهويان به إلى درك الفقر ، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة . ويختفي ، واكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها ، فرفض . وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبث بها معذمة واكن في صورة جذابة ؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحيه أن منا وتلهام قد استردا ثروتهما . ويبتهج الجميع ، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج . والحوار مريح ، والشخص بعيدة التصديق ، والحبكة منافية للعقل - واكن كل الحبيكات تقريباً منافية للعقل .

وفي اليوم الذي شهد افتتاح المسرح القومي بهمبورج (٢٢ أبريل ١٧٦٧) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته في نظرية الدراما وقد علقته هذه المقالات دورياً ، طوال العامين التاليين ، على التمثيليات التي أخرجت في ألمانيا ، وعلى نظرية الدراما في أعمال الفلاسفة . وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما أسمى أنواع الشعر ، وقبل في تناقض مندفع القواعد التي وضعها أرسطو في كتابه « في الشعر » :

« لست أتردد في الاعتراف . . . بأني أعده معصوماً مثل « مبادئ » (٦٩) اقليدس (الذي لم يعد الآن معصوماً) . ومع ذلك توصل إلى مواطنيه أن يكفوا عن تبعيتهم لكورنيلي وراسين وفولتير ، وأن يدرسوا فن الدراما كما هو معن في شكسبير (الذي تجاهل قواعد أرسطو) . وقال إنه يشعر ان في الدراما الفرنسية اسرافاً في الشكائية لا يسمح بإحداث ذلك « التنفيس » أو تطهير العواطف الذي وجده أرسطو في الدراما اليونانية ؛ وذهب إلى أن شكسبير قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل في الملك لير ، وعطيل ، وهاملت بحدة الحركة وقوة لغته وروعها . وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال ، ناسياً منديل ديدمونه . فكاتب الدراما القدير يتجنب الاعتماد على المصادفات والتفاهات ، فيبني بالتدرج كل شخص من شخصه بحيث تصدر الأحداث بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين . وقد وافق كتاب الدراما في فترة حركة « شتورم أوندر رانج (الاقترحام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلاً أعلى ، وحرروا الدراما الألمانية في ابتهاج من الدراما الفرنسية . وأهملت الروح القومية التي تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج ودعمته ، وسيطر شكسبير على المسرح الألماني قرابة قرن من الزمان .

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تنازعوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية . فشكا فريدرش شرودر من أن « ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية ؛ فهو يخرج ويدخل ، أو يتحدث إلى معارفه ، أو يستسلم للتفكير ، ومن السمات التي تثير سروره العابر يكون صورة هي من نسج عقله ولا تمت إلى الواقع بسبب» (٧٠) وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتمردين .

والآن هل يجدر بنا أن نقف به في منتصف طريقه لنلقى عليه بنظرة ؟ كان ربعة ، منتصب القامة في كبرياء ، قوياً لدنا بفضل التمرين الرياضي المنتظم ، مليح القسمات ، أزرق العينين في دكنة ، بنى الشعر فاتحه محتفظاً بلونه هذا حتى مماته . وكان دافئاً في صداقاته ، حاراً في عداواته . لا يسعده شيء كالجدل ، فإذا اشتبك فيه أثنى الجراح بقلم حاد . كتب يقول « ليبدأ

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه . وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيل شيئاً فشيئاً ، ثم يقفو الباقي هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها ، وأنا أعترف صراحة بأنني اخترت أولاً المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض ، لاسيما المسيو فولتير» (٧١) - وقد اقتضى هذا الاختيار قدراً كافياً من الشجاعة . وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع ، حاضر الجواب ، لديه عن كل شيء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضمني عليها النظام أو الاتساق أو الفعالية الكاملة . وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها . ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته :

« ليست الحقيقة التي يملكها الرجل - أو يعتقد أنه يملكها - هي التي تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذي بذله للوصول إليها . لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التي فيها وحدها كآله المطرد النمو . فالتملك يجعل العقل راكداً كسولاً متكبراً . ولو أن الله احتوى في مخاه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأنني سأخطيء دائماً أبداً - ثم قال لي « اختر ! » لأحيت رأسي في اتضاع أمام يسراه وقلت « أبتاه ، أعطني هذا ! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك » (٧٢) .

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان ، إحداهما مع إليز رايماروس ، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية في أكاديمية همبورج ، التي جعلت من بيتها ملتي لأرقى الجماعات ثقافة في المدينة . وأنضم ليسنج إلى ندوتها ، واختلف إليها مندلسون وياكوبى أثناء وجودهما في المدينة ، وسوف نرى الدور الحيوى الذي لعبته هذه الجماعة في تاريخ ليسنج . أما الصداقة الثانية التي كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونيغ يقول ليسنج إن هذه السيدة التي كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال « ذكية تفيض حيوية ، وهبت لباقة المرأة وكياستها » ، وأنها « كانت لا تزال محتفظة ببعض نضارة الشباب وفتنته » (٧٣) ، وقد جمعت هي أيضاً

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين ، كان ليسنج يحتل مكان الصادرة منهم . فلما رحل زوجها إلى البندقية في ١٧٩٩ قال ليسنج ، « إني أترك أسرتي وديعة بين يديك » . ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم ، لأن الكاتب المسرحي لم يكن له ما يملكه إلا العبقريّة ، وكان مديناً بألف طالر . وفي أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهم فرديناند حاكم برنزويك ليضطاع بأمانة مكتبة الدوقية في فولفنبوتل ، التي تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزويك (١٧٥٣) على سبعة أميال منها ، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت في رأي كازانوف « ثالث أعظم مكتبة في العالم » (٧٤) واتفق على أن ينقد ليسنج ستائة طالر في العالم ويخصص له مساعدان وخدام ، ويعطى سكناً مجانياً في قصر الدوق القديم ؛ وفي مايو ١٧٧٠ استقر في بيته الجديد .

غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً ، ومع ذلك فقد أهبج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجار الثوري (٩٩٨ - ١٠٨٨) يتشكك فيه في عقيدة استحالة خبز القربان ونخمره إلى جسد المسيح ودمه . وقد افتقد في حياته القاعدة ، التي عاشها الآن ، الكفاح والحافز اللذين وجدتهما في همبورج وبرلين . ثم إن انكبابه على قراءة المخطوط الرديئة في الضوء الضعيف أضر عينيه وأصابه بنوبات من الصداع ، وبدأت صحته تتداعى ، فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها « إميليا جالوتي » أفصححت عن الضيق بامتيازات الطبقة الأرستقراطية وأخلاقها . فإميليا هذه ابنة جمهوري متحمس ، يشتهيها سيدها أمير جواستاللا فيقتل خطيبها بأمره ، ثم يخطفها إلى قصره ؛ فيعثر عليها أبوها ، ويطعمها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها ، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام ، بينما الأمير سادر في غيه لا يخلج إلا لحظة . وحرارة المسرحية وبلاغتها أنقذتا خاتمتها ، فأصبحت مأساة محببة على خشبة المسرح الألماني ، وقد أرخ جوته بعرضها الأول (١٧٧٢) بعث الأدب الألماني من رقدته . ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً .

وفي أبريل ١٧٧٥ ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاً لليويولد أمير برنزويك ، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة في ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

وبارما وبياتشنتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما ؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس ، وربما شاهد تمثال لاوكون متأخراً . وفي فبراير ١٧٧٦ كان قد عاد إلى فولفنبوتل . وفكر في الاستقالة ، ولكنه أقنع بالبقاء في منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه ، وبمائة جنيه ذهبي فرنسي (لوى دور) في العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهام . وعرض الآن وهو في السابعة والأربعين على الأرملة إيفا كونيغ أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها . فحضرت ، وتزوجا (٨ أكتوبر ١٧٧٦) . وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة . وفي عشية الميلاد من عام ١٧٧٧ ، ولدت طفلاً مات في الغد . وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً ، وفقد ليسنج طعم الحياة .

ولكن الجدل حفظ عليه حياته . ففي أول مارس ١٧٦٨ ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً لزوجته مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه . وقد مررنا في غير هذا الموضوع ^(٧٥) من الكتاب مرور الكرام بهذا « الدفاع عن المؤمنين العقلانيين » . وكان ليسنج قد اطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز ، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه ، فوافقت . وكان له بصفتها أميناً للمكتبة سلطة نشر أى مخطوط في المجموعة . فأودع مخطوط « الدفاع » في المكتبة ، ثم نشر جزءاً منه في ١٧٧٤ بعنوان « تسامح الربوبيين . . . بقلم كاتب مجهول » . فلم يثر أى ضجة . ولكن الراسخين في الأمور الروحية أثارهم القسم الثانى في مخطوط رايماروس الذى أصدره ليسنج في ١٧٧٧ بعنوان « مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحي » . وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأى وحي موجه لشعب واحد أن يظفر بقبول جميع الناس في عالم تنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير ، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس ؛ اليهودى - المسيحى ، بعد ألف وسبعمئة سنة ، ليسوا إلا أقلية من البشر ، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلاً من الله للنوع الإنسانى . ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان « أهداف المسيح وتلاميذه » (١٧٧٨) لم تصور المسيح ابناً لله بل صوفياً متحمساً شارك رأى بعض اليهود في أن العالم المعروف يومها قد أشرف على نهايته ، وسيعقبه قيام

ملكوت الله على الأرض ؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (في زعم رايماروس) ،
لأنهم أملوا في أن يبوعوا عروشاً في هذا الملكوت القادم . فلما انهار الحلم
بصرخة المسيح اليائسة على الصليب « إلهي إلهي لماذا تركتني » — اخترع الرسل
(كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إنحفاء لهزيمته ، وصوروه بصورة ديان
العالم المكافئ المنتقم .

وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء « مخطوط فولفنبوتل »
هذه في نيف وثلاثين مقالا في الصحف الألمانية . واتهم يوهان ملكيور جوتسي
كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سرّاً على مزاعم « الكاتب المجهول » ،
وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق . أما الخصوم الأكثر
اعتدالاً فقد ونحوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شكراً كان من
الواجب الإفصاح عنها ، إن جاز الإفصاح إطلاقاً ، باللاتينية لفئة قليلة من
القراء . ورد ليسنج في إحدى عشرة نشرة (١٧٧٨) نافست « رسائل بسكال
الإقليمية » في تهكمها المرح — ونكتتها الذكية الفتاكة . يقول هيني « لم
يسلم منه رأس ، وما أكثر الرعوس التي أطاح بها لمجرد العبث الخالص ،
ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة » (٧٦) . وقد ذكر
ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوي في برنامج حركة
الإصلاح البروتستنتي ؛ ثم إن للشعب الحق في كل المعرفة المتاحة له ، وإلا
لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبي بروتستنتي . وعلى أية
حال فإن قيمة المسيحية (في زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجرد
وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية .
وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفنبوتل ومخطوط رايماروس ،
وأمرت ليسنج بالألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزويكي .

فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع
تمثيلياته . وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التي تحملها بسبب مرض
زوجته وموتها ، فاقترض ثلاثمائة طالر من يهودي همبورجي ليوفر
الوقت اللازم للفراغ من مسرحية « ناثن الحكيم » . وقد اختار

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة . وأما ناثان هذا فتاجر يهودى ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبحهم المسيحيون الذين أتلفت الحرب الطويلة أخلاقهم . وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها ، وكان أبوها — الذى قتل فى المعركة مؤخراً — قد أنقذ ناثان من الموت فى مناسبات عديدة . ويسمى ناثان الطفلة ريكا ، ويربها كأنها ابنته ، ولا يلقنها إلا التعاليم الدينية التى يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون . وبعد ثمانية عشر عاماً ، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه ، احترق بيته ؛ وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يختفى دون التعريف بشخصه ؟ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً . ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه ، فيسبه هذا لأنه يهودى ، ولكن ناثان يقنعه بالمجئ لتقبل شكر ريكا وعرفانها . فيحضر ، ويقع فى غرامها وتبادل الحب ، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم ترب كسيحية يسائل نفسه ألا يلتزم بيمين الفروسية بتبليغ الأمر إلى بطريك أورشليم . ثم يشرح مشكلته للبطريك دون ذكر أسماء الأفراد ، ويحدث البطريك أنهما ناثان وريكا ، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة . ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودى ، ولكنه هو الراهب ذاته الذى جاء بريكا إلى ناثان قبل ثمانية عشر عاماً ؛ وقد لحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة ، فيخبره بالخطر الذى يهدد حياته ، ويحزنه ذلك الحقد الدينى الذى يجعل الناس قتله سفاكين للدماء إلى هذا الحد .

ثم يقع صلاح الدين ، حاكم القدس الآن ، فى ضائقة مالية . فيرسل فى طلب ناثان بأمل الاقتراض منه . فيحضر ناثان ، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين ، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه . أما السلطان ، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة ، فيسأله أى الأديان الثلاثة أفضل فى رأيه . ويجب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التى رواها بوكاشيو ونسبها للملكى صادق اليهودى الاسكندرى . تقول القصة إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلاً

على الوارث الشرعى لضبعة غنية . ولكن فى أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوى حرارة وصدقاً ، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ، ويعطى كل ابن خاتماً سراً ، وبعد موته يتنازع الأبناء على أى الخواتم هو لأصيل والحقيقى ، ثم يحتكمون إلى القضاء - حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم . فأما الأب المحب فهو الله ، وأما الخواتم الثلاثة فهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد فى أمر هذه الأديان وأياها هو شريعة الله الحقمة . ويدخل ناثان تغييراً جديداً على القصة : فالخاتم الأصيلى كان المفروض أنه يجعل لابسه إنساناً فاضلاً ، ولكن بما أن أحداً من الأبناء الثلاثة لا يفضل غيره من الناس ، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصيلى قد فقد ، فكل خاتم - أى كل دين - حقيقى بقدر ما يجعل لابسه فاضلاً . ويعجب صلاح الدين بجواب ناثان إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه - وعقب هذا الحديث الفلسفى يظهر مخطوط عربى يتبين منه أن فارس المعبد وريكما والمدان لأب واحد . فيحزنان لأنهما لا يستطيعان الزواج ، ولكنهما يفرحان لأن فى استطاعتهم الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت ينالان بركة ناثان اليهودى وصلاح الدين المسلم ؟

أكان ناثان صورة صاغها على غرار موسى مندلسون ؟ هناك أوجه شبه بين الإثنين كما سنرى فى فصل لاحق ، ومن المحتمل ، برغم أوجه الخلاف الكثيرة ، أن ليسنج وجد فى صديقه الكثير مما أطمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس . وربما رسم ليسنج اليهودى والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيحى مدفوعاً برغبته الشديدة فى التبشير بالتسامح ؛ ففارس المعبد فى أول لقاء مع ناثان فظ فى تعصب ، والبطريك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسى؟) لا ينصف فى صورته هذه الأساقفة الرجاء المستنيرين الذين كانوا آنئذ يحكمون تريير وماينز وكولون . وأنكر جمهور ألمانيا المسيحى التمثيلية حين نشرت فى ١٧٧٩ لأنه رآها غير منصفة ؛ وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج . فلم تصل تمثيلية « ناثان الحكيم » إلى خشبة المسرح إلا فى عام ١٧٨٣م فى الليلة الثالثة كان المسرح خالياً . وفى ١٨٠١ لقيت

نسخة معدلة أعدها شيلر وجوته قبولا حسناً في فاعمار ، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة في المسارح الألمانية طوال قرن كامل .

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر نداءه الأخير للتفاهم ، وصاغه في عبارات دينية ، كأنما أزداد أن يلين جانب المقاومة ويقدم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة . وهذا المقال المسمى « تربية النوع الإنساني » من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة ؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير . فالتاريخ بجملة يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة ، وتربية تدرجية للنوع الإنساني . وكل دين عظيم كان مرحلة في هذه الإنارة المتدرجة الخطوات ، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة بنجدع بها رجال الدين الأنانيون السذج من الناس ، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية ، وغرس الفضيلة والتهذيب والوحدة الاجتماعية . ففي إحدى مراحلها (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا في عمر مديد ؛ وفي مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المشبط للعزائم بين الفضيلة والنجاح في هذه الدنيا بوعدته بثواب الآخرة ؛ وفي كلتا الحالتين خوطب الناس على قدر فهمهم المحدود في ذلك الوقت . وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة ، ربما كان الفضل في تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذي جعلها سائغة . فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا بالمعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم ، كالخطيئة الأصلية والتثليث ، فإن هذه التعاليم أيضاً هي رموز للحقيقة وأدوات للتربية . فالله يمكن تصوره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة ؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية (٧٧) . ولكن المسيحية فوق الطبيعية ليست سوى خطوة في تطور العقل البشري ، وستأتي مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنساني أن يعقل ، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولاً ، لا طمعاً في ثواب مادي أو سماوي . وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة ، وهي لم تتوفر للنوع الإنساني إلى الآن ولكنها « آتية ، آتية لا ريب فيها . . . زمان رسالة جديدة خالدة ! » (٧٨) وكما أن

الفرد المتوسط يلخص في نموه التطور الفكري والخلقي للنوع ، فكذلك يمر النوع في ببطء خلال التطور الفكري والخلقي للفرد الأعلى . وإذا شئنا التعبير بطريقة فيثاغوريه ، قلنا ان كلا منا يولد من جديد ، ثم يولد من جديد ، حتى تكتمل تربيته - أي تكيفه مع العقل ٥

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية في الدين ؟ لقد قباه معيناً هائلاً للفضيلة ، ولكنه أنكره نسقاً من العقائد القطعية التي تفرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعي . وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة ، المسبب للتطور والمتطور هو ذاته ؛ ورأى في المسيح أكمل إنسان مثالي ، ولكنه ليس تجسيداً لهذا الإله إلا مجازاً؛ وقد تطلع إلى زمن يختفي فيه اللاهوت كله من المسيحية ، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقي سام من العطف الصبور والأخوة العالمية . وفي مسودة نخطاب إلى مندلسون صرح بالتزامه برأى سبنوزا في أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة ، و صفتان لجوهر واحد متطابق مع الله . وقال لياكوبى « ان المفاهيم التقليدية عن الإله لم يعد لها وجود عندي ، وانا لأطبقها ، لا أطبقها كلها ! لا أعرف غير هذا » (٧٩) ؛ وفي ١٧٨٠ طلب إليه ياكوبى الذى زاره في قولفنبوتل أن يساعده في الرد على سبنوزا وتفنيده آرائه ، فصدمه جواب ليسنج : « ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبنوزا . . . ولو خيرت في أن أتسمى بإسم آخر لما عرفت غير إسمه » (٨٠) .

وقد ترك ليسنج وحيداً في أخريات عمره بسبب هرطقاته وضرأوته أحياناً في الجدل . وبقي له بعض الأصدقاء في برنزويك يختلف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج . وكان أبناء زوجته يعيشون معه في قولفنبوتل ، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التي خلفتها كاملة . ولكن خصومه شهروا به في طول ألمانيا وعرضها ما حذا رهيباً . فمحداهم ، وتجاسر على معارضة الرجل الذى يدفع له راتبه ، ذلك أن كارل فلهلم فرديناند ، الذى أصبح الآن (١٧٨٠) دوقاً على برنزويك ، زج في السجن يهودياً

شاباً آثار سخطه . فزار ليسنج الفتى فى سجنه ، ثم اصطحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترد عافيته .

أما عافيته هو فكانت قد ولت . وغشى بصره الآن حتى لم يكده يقوى على القراءة . وكان يعانى من الربو ، وضعف الرئتين ، وتصلب الشرايين . وفى ٣ فبراير ١٧٨١ بينما كان فى زيارة لبرنزويك أصابته نوبة ربو شديدة ، وبصق دمًا . وأوصى أصحابه قائلاً : حين ترونى مشرفاً على الموت ، استدعوا موثقاً ، وسأعلن أمامه انى أموت على غير دين من الأديان السائدة (٨١) . وفى ١٥ فبراير بينما كان راقداً فى فراشه اجتمع نفر من أصحابه فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح باب حجرتة ، وظهر ليسنج ، منحنى الظهر مهزولاً ، ورفع قلنسوته بحمياً ، ثم خر على الأرض صريعاً بسكتة دماغية . وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حملة عند موته إلى الجحيم كأنه فاوست آخر باع روحه (٨٢) . ولم يخلف من المال إلا أقل القليل ، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته .

لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية . فى عام موته نشر كانط كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » ونشر شيلر أول تمثلياته . وكان جوته يرى فى ليسنج المحرر العظيم ، وأبا التنوير الألمانى . قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج « فى الحياة كرمناك إلها من الآلهة ؛ أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس » .

٦ - رد الفعل الرومانتيكى

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة ؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألمانى فتشبتت بترائه الدينى ، ورحب بالشاعر الذى تغنى بإيمانهم رجلاً ملهماً من السماء . فبعد أن أثار هندل مشاعر إرلنده على الأقل بأنغام « المسيا » السمائية بست سنوات ، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمتة (المسيا) (١٧٤٨ - ٧٣) .

وقد ولد كلوبشتوك في ١٧٢٤ قبل مولد ليسنج بخمس سنين ، وعاش
اثنين وعشرين سنة بعده . وقد أصبح ليسنج رجلاً حر الفكر وهو ابن
القسيس ، أما كلوبشتوك ابن المحامى فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن
حياة المسيح أهم رسالة لحياته . وبلغ من تحمسه الشديد لموضوعه أنه نشر
الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لا يزال فتى في الرابعة والعشرين ،
وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل ، غير المقفاة ، جمهوراً من القراء
بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين
تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة ، ولكنها رفضتها . بيد أن
فردريك الخامس ملك للدنمرك - استجابة لتوصية وزيره يوهان فون
برنشتورف - دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة في البلاط الدنمركى وإكمال
ملحمته نظير أربعائة طالر في العام . وفي طريق الشاعر إلى كوبنهاجن رافته
إحدى المعجبات الدنمركيات ، واسمها مارجريتا مولر ؛ وفي ١٧٥٤ تزوجها ،
وفي ١٧٥٨ ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره . وقد خلد ذكرها في القسم
الخامس عشر من « المسيا » وفي بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً . وأقام
في كوبنهاجن عشرين سنة ، ثم ذهبت حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف ،
فعاد إلى همبورج ، وفي ١٧٧٣ نشر آخر أجزاء ملحمة الضخمة .

وكان مطلعها دعاء هو صدى لماتن ، ثم روت في عشرين قصماً القصة
المقدسة ، ابتداء من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى
السماء . وبعد أن أنفق كلوبشتوك في كتابة ملحمة وقتاً قارب ما أنفقه المسيح
لكى يعيشها ، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله :

ها أنذا قد بلغت هدفي ! ان الفكرة المثيرة

ترف خلال روحى . وذراعك القادرة على كل شىء

ربى وإلهى هى وحدها التى هدتنى

عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ

ذلك الهدف البعيد ! أنت أيها الرب شفيتنى ،

وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبى المتخاذل ،

الذى كان فى صحبة حميمة مع الموت ؛
وكنيت إذا شخصت إلى الأهوال لم تلبث
أشكالها المظلمة أن تتوارى ، لانك تحمىنى ؛
لقد اختفت سريعاً يا نخلصى ، لقد تغنيت
بوعد رحمتك . ووطئت قدمائى
طريقى الخيف ، وكل رجائى فىك أنت ؛ (٨٣)

ورحبت ألمانيا السنوية الإيمان بملحمة « المسيا » كأفضل شعر كتب إلى
يومها بالألمانية . وينبئنا جوته عن مستشار فى فرانكفورت كان يقرأ الأقسام
العشرة الأولى « كل سنة فى أسبوع الآلام ، وبهذه الطريقة ، ينعش روحه
طوال العام » . أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنبذ شروط
معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض (٨٤) . وقد سكب
كلوبشتوك ورعه بغزارة فى شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة
من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التى يجب أن
تكونها الملحمة ؛ وليس من اليسير علينا أن نتبع تحليقاً عاطفياً استغرق
عشرين قسماً وخمسة وعشرين سنة .

وكما أن فولتير ولد نقيضه فى روسو ، كذلك جعل ليسنج بارتيايبته ،
وعقلانيته ، ونزعتة الفكرية ، ألمانيا تشعر بحاجتها إلى كتاب يدركون مقابل
هذا مكان وحقوق الوجدان ، والعاطفة ، والخيال ، والغموض ، والرومانس ،
والعنصر فوق الطبيعى فى حياة البشر .

وقد أصبحت عبادة « الحساسية » عند بعض ألمان هذه الفترة ،
لاسيا النساء منهم ، ديناً تماماً أصبحت موضحة . وكان فى دارمشتات
« حلقة لدوى الحساسية » جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجدانى
مبدأ وشعيرة . وكان روسو هو « مسيا » هذه النفوس . وفاق تأثيره
فى ألمانيا تأثير فولتير بمراحل ؛ واعترف به هردر وشيلر ينبوعاً للإلهام ؛
وكان كتاب كانط « نقد العقل العلمى » مشرباً بروسو ، أما جوته

فقد بدأ بروسو « الشعور هو كل شيء » وانتقل إلى فولتير « فكر في أن تحيا » ، ثم انتهى إلى ضرب رأسيهما ببعضهما ببعض . وجاء في غضون ذلك شعراء الوجدان من إنجلترا : جيمس طومسون ، ووليم كولنز ، وإدورد ينج ، وقصاص الوجدان رتشر دسن وستيرن . وقد أثارت مختارات توماس برسي من روائع الشعر الإنجليزي القديم ، وديوان مكفرسن (من الشعر المنثور الذي زعم أنه ترجمة لشعر « أوسيان » من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط وغموضه ورومانسيته ؛ وبعث كلوبشتوك وهاينريش فون جرستنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوه وألمانيا السابقة للمسيحية .

وكان يوهان جيورج هامان ، قبل عام ١٧٨١ ، قائد الثورة على العقل . ولد مثل كانط في مدينة كونجزبرج الغائمة السماء ، وأشربه أبوه الوجدان الديني بشدة ، وتلقى علومه في الجامعة ، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً ، ووجد عزاءه في إيمان بروتستنتي يثبت لكل اطومات حركة التنوير ، وكان يقول إن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان ، حديث التطور وليس أساسياً ؛ أما الغريزة ، والحدس ، والوجدان ، فهي أعمق منه ، والفلسفة الحققة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبه كلها . واللغة ليست في أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان . والشعر أعمق من النثر . والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها ، بل بتلك الخاصية التي لا يمكن تعريفها وهي العبقرية التي تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان .

ووافق فريدريش ياكوبى هامان وروسو . وقال ان فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق ، ولكنها زائفة لأن المنطق لا ينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة ، التي لا تتكشف إلا للوجدان والإيمان . فوجود الله لا يمكن إثباته بالعقل ، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً .

هذا التمجيد للوجدان والشعر شحنت الروح التيوتونية لتطلق تحقيقات

من الأدب الخصب الخيال جعلت النصف الثاني من القرن الثامن عشر في ألمانيا مذكراً بحرارة إنجلترا وخصوبة إنتاجها على عهد إليزابيث . فكثرت مجلات الشعر ، التي عانت قصر العمر المألوف ، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها « لويزه » (١٧٨٣ - ٩٥) فضلاً عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير ، وقد كسبت هذه القصة محبة الألمان وحفزت جوته لينافسها . وظفر سالومون جسنر بقراء دوليين أقبلوا على غناياته الرقيقة ورعوياته الثرية . ومس ما تياس كلوديوس قلوب مائة ألف أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية ، مثل أغنيته المسماة « تهويده تغني هل ضوء القمر » :

نامي الآن يا صغيرتي !
لم تبكين؟
ناعمة هي الراحة ،
وحلوة في ضوء القمر .
وسيقبل النعاس عما قليل
وبلا ألم .
إن القمر يفرح بالأطفال
ويحبك (٨٥) .

أما جوتفريد بورجر فقد أوتى كل فضائل العبقرية الرومانسية . كان ابناً لراعي تنيسة . وأرسل إلى خاله في جوتنجن ليدرس القانون ، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية . وفي ١٧٧٣ نال غفران جميع الناس لحطاياه بقصيدته الشعبية « لينوره » . وحبیب لينوره هذه يرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ . وفي كل صباح تفتفض من أحلامها وتسأله « يافلهم ، أنت عديم الإيمان ، أم أنت ميت؟ وإلى متى يبطن قدامك؟ » وتضع الحرب أوزارها ، ويعود الجنود ، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله :

وراحت تستفسر من الجميع في ذلك العرض ،

وتسأل كل واحد عن اسمه ،
ولكن أحداً لم يعطها جواباً ،
لا أحد ممن عادوا ،
فلما مضى كل الجنود ،
مزقت شعرها الفاحم ،
وارتمت على الأرض
في نوبات أليمة من اليأس القاتل .

وتقول لها أمها إن « ما يفعله الله يفعله حسناً » ، وتجيّب لينوره بأن
هذا وهم ، وتطلب لنفسها الموت . . . وتحدثها الأم عن النعيم والجحيم ،
وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهم ، والجحيم أن تحرم منه ، وتروح
تهلّى طوال نهارها . فإذا جن الليل وقف فارس ببابها ، وهو لا يذكر اسمه ،
بل يأمرها بأن تأتي معه وتكون عروسه . فتمتطي خلفه بجواده الأسود ،
وتركب الليل كله . ثم يصلان إلى جبانة ، وترقص الأشباح من حولها .
وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة ، وتجد لينوره أنها متشبثة بهيكل عظمى .
وبيما هي تتأرجح بين الحياة والموت تنوح الأرواح بهذه الكلمات :

صبراً ، صبراً ! حتى حين ينفطر القلب !
لا تنزعى الله في سمائه !
لقد جردت من جسديك ؟
فليسبغ الله رحمته على روحك (٨٦) ،

٧ - الزوبعية

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلويشتوك ورقة جسر إلى
النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام ، إلى تمرد الشباب الألماني
وجهاده في نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية . ذلك أن ارسنة الرابطة البلاطات
الجامدة المتصالبة وعقائدية الوعاظ المتهافنة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالهم
الكثيب على المال ، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المباداة للشعور ،

وحذلة العلماء وغرورهم - كل أولئك آثار سنخ شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموتين مكانتهم . وقد أصاحوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية ، ولكنهم لم يعبأوا بتمجيده « للإرادة العامة » ووافقوه على رفض المادية ، والعقلانية ، والحتمية ، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسبير القوية عن القواعد ، على كلاسيكية كورنبي وراسين المقيدة للحركة . وأساغوا ذكاء فولتير وظرفه ، ولكن المكان الذي اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء . وقد طربوا لتمرد المستعمرات الأمريكية على انجلترا . كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة « تمنينا للأمريكيين النجاح كله ، وبدأ اسما فرانكلين وواشنطن يسطعان ويتألقان في سماء السياسة والحرب » (٨٧) . هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية ، وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب ، والدولة على النفوس . كانوا مع الأصالة ، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق ، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون . وأحسوا أن الزمن في صفهم ، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم . يقول جوته « أوه ، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين ! » (٨٨) .

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدى تقاليد الزى وإحلال تقاليد من عندهم محلها ، فكان كرسنوف كاوفمان يسير عارى الرأس ، مشعث الشعر ، مفتوح القميص حتى السرة (٨٩) . ولكن هذا كان حالة شاذة ، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالتين ، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم . وكان بعضهم ميسوراً . وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون بوليشنجن (١٧٧٣) ، وفي السنة التالية أصبحت قصته « آلام فرتر » لواء الرومانتيكية الحفاق . وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر « اللصوص » (١٧٨١) ، ولكن هذه النفوس المعقدة ، المتطورة ، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهايباً وأضعف جذوراً .

وكان يوهان ميرك أحد الآباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوى البدن ، وكان قد أتم دراسته بالجامعة ، وأصبح شخصاً أثيراً في بلاط هسي - دار مشقات ، ثم عين رئيساً عاماً لصيافة الجيش ، واشتهر بالدكاء الحاد والكفاءة العملية . وحين التقى به جوته في ١٧٧١ وقع من نفسه موقفاً حسناً ، فاشترك معه ومع هرذر في تمويل مجلة نقدية تسمى «أنباء فرانكفورت الأدبية» ، ومن هنا لقب «الفرانكفورتيين» (٩٠) الذي أطلق أول الأمر على المتتمردين . وإذا كان ميرك خبيراً بديناً الأعمال والسياسة ، ورحالة جاب أرجاء ألمانيا وتنقل في أنحاء روسيا ، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى ، وملل العيش في قصور الملوك والأمراء ، واستغلال الفلاحين . فلما ألنى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال ، بات متألماً ساخراً . وقد سماه جوته «مفتوفيليس ميرك» ، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج لأدوار الأبطال في فاوست . واضطرب عقل ميرك لهزائمه في عمله وتعاسته في زواجه . ووقع في حبال الدين ، فأنقذه منها دوق ساكسي - فامار استجابة لرجاء جوته . ثم بات فريسة لاكتئاب لا يبرحه ، وقتل نفسه وهو لا يزال في الخمسين (١٧٩١) .

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لنتس . وكان ابناً لراعي كنيسة لوثرى في ليفونيا ، أثر في أعصابه الضعيفة ، ومزاجه السريع الإثارة ، في طفولته التأكيد على عقيدتي الخطيئة والجحيم (٩١) . وأعانه حينما استماعه إلى محاضرات كانط في كونيغزبرج ؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو ، فقال لنتس بعد قليل عن «هلويز الجديدة» إنها خير كتاب طبع إطلاقاً في فرنسا . وفي ستراسبورج التقى بجوته ، فبهرتة شخصيته الإيجابية ، وقلده في الفكر والأسلوب ، وكتب أشعاراً غنائية اشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت في بعض طبعات أعمال جوته . ثم مضى إلى زيزنهايم ، ووقع (بعد جوته) في غرام فرديريكه بريون ، ونظم القصائد الحارة في مديحتها . وأكد لها أنها أن لم تستجب لحبه فهو قاتل نفسه ، فلم تفعل ولم يفعل . ثم انتقل إلى فامار ، وصادقه جوته ، وحساد جوته على نجاحه ، وسخر من علاقة جوته بشارلوتة فون شتاين ، وطلب إليه الدوق ان يرحل

عن الدوقية . . وكان شاعراً ومسرحياً موهوباً . وتمثيلته المسماة « الجند »
نقدت نقداً لاذعاً الفوارق الطبقيّة والحياة البورجوازية ، وشخصيتها المحورية
فتاة من الطبقة الوسطى تتطالع عبثاً إلى الزواج من ضابط . ثم تنقلب مومساً
وتتحرش بأبيها الذي لم تتعرف عليه في الشوارع . وإذا كان لنتس مفتقراً إلى
الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق في الحياة ،
فقد راح يهيم متنقلاً من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق ، ويعانى
نوبات من الجنون ، ويحاول الانتحار غير مرة ، وأخيراً مات مجنوناً (١٧٩٢).

أما مكسميليان فون كلنجر فكان أذكى دعاة الحركة . ندد بالدنيا
وارتقى فيها إلى مكان مرموق ، وأطلق لقلمه العنان في الحديث العنيف في
تمثيلاته ، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات ، واستمتع بكل آثام الشباب
وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين . وعنه كتب جوته بيته الذي نم عن
حسن إدراك وفطنة : « في الصبايا نحب ما هن عليه ، أما في الفتيان فنحب
ما يرجى أن يكونوه » . وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو في
الرابعة والعشرين (١٧٧٦) « شتورم أونند درانج » اسمها ومزاجها للزوبعية .
وترى فيها المتمردين الأوروبيين يتغربون في أمريكا أملاً في أن يجدوا منافذ حرة
لزعائم الفردية ؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد جمحت ؛ وأما دعوتها
فدعوة العبقرية التي تحررت من كل القواعد . وقد حارب كلنجر في
الجيشين النمساوي والروسي ، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى ،
وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية ، ثم تجمد عموداً من أعمدة
الدولة .

وأما فلهم هاينزى فقد توج الحركة برواية « أردنجهللو » (١٧٨٧) التي
جمعت بين الفرضوية ، والعدمية ، والشيوعية ، والفاشية ، واللامبالاة
بالأخلاق ، وإرادة القوة ، في مهرجان صاحب من الشهوانية والجريمة ،
يقول البطل إن الجريمة ليست جريمة إن كانت شجاعة ؛ وما من جريمة
حقيقة غير الصعف ، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة ؛ والحياة

إظهار للغرائز الأساسية ، ونحن نخطيء إذا دمغنا هذه الغرائز باللا أخلاقية . وهكذا يغوى أردنجالو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعته النزوة ، ويرى في عواطفه المشبوهة الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة . وهو يصيف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل : « ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحظوا طوال حياتهم بساعة واحدة كساعاته — بالقياس إلى هذا الرجل الفرد ؟ » (٩٢) وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأوحى .

في دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها . فمعظم قادتها أتوا من الطبقة الوسطى ، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب ، ووقاحة ذوى المناصب ، وبذخ الأحرار الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين . وقد أجمعوا على الرثاء لحظ الفلاح العاثر — حراً كان أو قناً — وتصوير خلقه في صورة مثالية . وأهابوا بالنساء أن ينبذن مواضاتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماءاتهن وتقواهن الخائفة الذليلة ، ودعوهم للمجىء والمشاركة في الحياة المثيرة التي يحياها العقل المحرر من الأغلال ، والذكر الجوال . وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوى في نفس عبقريتها جزء من الحافز الخلاق والسر المبدع في الدنيا . ووجدوا بين الطبيعة والله ، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً . واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكرى والطموح الملهب الذى يحطم كل حواجز التقاليد أو الاعراف أو الأخلاق أو القوانين . وهكذا نرى « مالرمولر » يكتب قبل جوته بزمان مسرحية سماها « فوستس لوبن » « لأننى عرفت فيه من البداية رجلاً عظيماً . . . يحس بقوته كلها ، ويشعر بالليجام الذى قيده به القدر ، ويحاول أن يخلعه ، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شيء يقف في طريقه » (٩٣) .

وقد سميت حماسة الزوبعية وشططها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية ، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو . ولم تكسب

الحركة أى تأييد شعبي ، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً . فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة في بنيان الحياة الألمانية ، تصالحوا مع الأمراء ، وأملوا - كما أمل جماعة الفلاسفة - أن يقود الحكام المستنيرون الطريق إلى التحرر الفكرى والإصلاح الاجتماعى . وأدرك هرذر وجوته وشيلر الحركة في شبابهم ، ثم انسحبوا من نارها الآكلة ، وقلعوا أظافرهم وأطبقوا أجنحتهم ، وتقبلوا حماية أدواق فائمار الكرام شاكرين .

٨ - الفنانون

كان ألمان العصر الذى نحن بصددده أنداد آفى الفن للفرنسيين والإيطاليين . فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوكو عن فرنسا ، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكله مان ومنجز ، وآثر ملوك فرنسا وملكاتهما الألمان المغتربين أمثال دافيد رونتجن ، و « جان » ريزنر ، وآدم فايسفايلر ، على صناعات الأثاث الفاخر الفرنسيين ؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع رونتجن ^(٩٤) . وحفل المقر الملكى فى ميونخ ، وقصر فردريك الجديد فى بوتسدام ، وبيوت أثرياء الألمان ، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش ، حتى وفد طراز أخف فى نهاية العصر من صنع الانجليزيين تشينديل وشيراتن . وكانت مصانع مايسن قد أضرت بها الحرب ، ولكن تمفنبرج ولود فجزبرج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والحزف ، وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرحة الرشيقة الرقص والغناء والتقبيل .

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت التماثيل جدير بالإعجاب . شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلاور نحت تمثالا نصفياً لجوته فى أيام فائمار الأولى - بدا فيه متشوقاً ، براق العين ، واثق النفس ^(٩٥) . ولم يبلغ لودفج ، بن مارتن ، هذا الإتقان فى تمثاله الذى نحته لشيلر ^(٩٦) ، وأفضل منه تمثال شيلر المعروف الآن فى ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون دانيكر . أما سيد النحت الألمانى فى هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف ، الذى أصبح مثالا للبلاط فى برلين عام ١٧٨٨ . وفى ١٧٩١ نحت رأساً لفردريك ،

وفي ١٧٩٣ صنع له تمثالا كامل الطول ؛ وفي ١٨١٦ صب بالبرونز « فرديكا » (٩٧) أصغر - وهوراثعة لاينساها من شهدها . وصب البرونز « مركبة النصر » لبوابة براندنبرج ، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكي في المجموعة البرخامية التي نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريديكة .

وكثر المصورون في ألمانيا كثرة أتاحت لها أن تنزل لإيطاليا عن اثني عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء « من ذلك أن عدد المصورين من آل تيشباين الذين جمعهم رابطة الفرشاة كان كبيراً بحيث يسهل علينا الخلط بينهم . فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور في بلاط هسي - كاسل رسم صورة بديعة لليسنج . أما ابن أخيه يوهان فريديش تيشباين ، فرسم في كاسل وروما ونابلي وباريس وفيينا ولاهاي وديساو وليبزج وسانت بطرسبرج ، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسي - فايمار . وأما يوهان هاينريش فلهلم تيشباين فعاش في إيطاليا (١٧٨٧ - ٩٩) ، ورسم صورة مشهورة « بجوته في كمانيا روما » ثم عاد ليصبح مصور البلاط لدوق أولدنبورج .

وكان من مصادر « الزوبعية » « الألمانية المنحازة لإيطالية آدم فريديش أويزر ، النحات ، الرسام ، النقاش ، المعلم ، وداعية اصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية . وقد عاش فنكلمان معه زمناً في درسدن ، وانتقد رسمه ، وأعجب بخلقه ، وقال « إنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا » (٩٨) وفي ١٧٦٤ عين أويزر مديراً لأكاديمية الفنون في ليبزج ، وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية .

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا في ألمانيا دانييل شوذوفيكسي ، وكان بولندياً . ولد في دانبرج ، وترك يتيماً ، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور . وفي ١٧٤٣ انتقل إلى برلين وأصبح ألمانيا في كل شيء غير إلا اسمه . وقد روى حياة المسيح في منمنمات رائعة أذاعت صيته في طول البلاد وعرضها ، ثم رسم بمزاج فولتيري « جان كالايس وأسرتة » وتكاثر الطلب على رسومه حتى إنه لم ينشر أي أثر أدبي كبير في بروسيا

سنين طوالاً دون أن تزينه رسوم من صنعه . وفي أروع محفوراته صور أسرته : فصور نفسه هو و مكب على عمله ، وزوجته تشرف في اعتزاز على أبنائه الخمسة ، ثم جدران البيت تكسوها الصور . ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوتة) كستز ، التي أحبها جوته وفقدتها . وترى في عمله رشاقة في الخط ورقة في الشعور تميزه عن هوجارت ، الذي كثيراً ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة . وكثيراً ما استلهم فاتو ؛ وفي صورته « لقاء في حديقة الحيوان »^(٩٩) ، ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الحلاب . وقد ترك أنطون جراف صورة اشود وفيكي^(١٠٠) - يفيض ابتسامات وعقصاً ولحماً مكتنزاً - وصورة لنفسه^(١٠١) وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص . وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته^(١٠٢) ، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتر^(١٠٣) وجلل بالثياب المذهبة جسد السيدة هوفرات بومي الفصفاض^(١٠٤) .

وآخر قائمة المصورين في نصف القرن الذي نحن بصددده هو آزهوس ياكوب كارستنز ، الذي استوعب دعوة فنكامان نصياً وروحاً ، وأكمل الإحياء الكلاسيكي في التصوير الألماني . ولد في شلزفنج ، وتعلم في مدارس كوبنهاجن وإيطاليا ، ومارس عمله في لوبك وبرلين على الأخص ، ولكنه عاد إلى إيطاليا في ١٧٩٢ ، ووجد المتعة الكبرى في تأمل أطلال النحت والعمارة القديمين . ولم يعرف أن الزمن قد نزع اللون من الفن اليوناني فلم يبق إلا على الخط ؛ وعليه أحال فرشاته إلى قلم كما فعل منجز ، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل . وقد أزعجته العيوب البدنية التي شابت أجساد نماذجها التي يصورها في رسمه ، فقرر أن يركن إلى خياله ؛ وأمهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكامان . ومن هذه انتقل إلى تصوير دانتى وشكسبير . وكان ولعه بالخط والشكل يفتقد دائماً اللون والحياة ، وحتى حين كان يبلغ في رؤياه لأشباه الإله رؤيا تقرب

من رؤيا ميكلائنجلوا ، كما نرى في لوحة « مولد النور » (١٠٥) ، فإننا لانستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التي تذكر بها موتسارت موسيقاها . وردت روما على محبته بمحبة مثلها ، وأتاحت لعمله (١٧٩٥) العرض في أوسع وأشهر المعارض التي أتاحت لأي فنان حديث . وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين . ولا غرو فالفن كالجنس قد يكون ناراً آكله .

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين في عهد فردريك الأكبر . وكان قد بدأ قصره الجديد في ١٧٥٥ ، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضي في المشروع . فشارك في تصميمه ثلاثة معماريين - بورنج ، وجونتارد ، وما نجر ، فمزجوا الكلاسيك بالباروك في صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة ، أما الزخارف الداخلية فقد نافسوا فيها أبداع نماذج الروكوكو الفرنسي . وكان للكنيسة الفرنسية في برلين رواق معمد كلاسيكي ، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جهورج أونجر برجا كلاسيكياً (١٧٨٠ - ٨٥) . وزاد أونجر برلين جلالاً بتشبيد مكتبة ملكية في ١٧٧٤ - ٨٠ . أما بوابة براندنبورج التي بناها كارل لانجهانز في ١٧٨٨ - ٩١ فقد قادت تقليداً سافراً مدخل الأكروبول الفخمة ؛ وقد نجت بالجهد من التدمير في الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فقدت « الكدرجة الشهيرة » وهي العربة ذات الجياد الأربعة التي توجهها بها شادوف .

كانت مدن ألمانيا أخرى تنحت الآثار المخلفة لأمراء البيوت المالكة والنبلاء والرفات ، فزينت أخت فردريك فلهلميه مدينة بايروت بقصر زين بالروكوكو الساحر (١٧٤٤ - ٧٣) . وفي كاسل صمم سيمون لوى دورى (١٧٦٩ وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء في قلعة حاكم هسي - كاسل . وفي الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيجاجى قلعة بنرات الفخمة (١٧٥٥ - ٦٩) ، وبني فليب دلاجبير لود فجز بوج قصر مونريبو الجميل (١٧٦٢ - ٦٤) .

٩ - بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أى أمة أخرى باستثناء إيطاليا . فالأسرة التى نخلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً . وكانت الموسيقى الكنيسية آخذة فى الاضمحلال لأن العلم والفلسفة ، والمدن والصناعة ، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا ، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل ، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوارس الكنسية إلى الليدات والتمثيلات الغنائية والأوبرا . وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً فى الأغنية بـ «أغان فى فوكستن» (١٧٨٢) ؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامة لا تنازع فى استخدام الموسيقى فى الشعر الغنائى .

وقد شجع التحسين الآلى الذى أدخل على البيانوا انتشار الحفلات الموسيقية وظهور مهرة العازفين على الآلات . وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت ، وآبت فوجلر ، ويهان هومل ، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقى . فى ١٠ مارس ١٧٨٩ قام هومل الذى لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانوا فى درسدن ؛ ولم يدر أن موتسارت سيكون بين السامعين ؛ وخلال الحفلة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه ؛ فما إن فرغ من عزف قطبته حتى شق طريقه بين الجمع المصنفق وعائق موتسارت فى عبارات حارة تفيض بالولاء والبهجة^(١٠٦) . واكتسب آبت (أعنى آبوت ، أى الأب الدينى) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (١٧٧٣) ؛ وفى مانهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً . وكان فى التأليف الموسيقى من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً ؛ وفى العزف على الأرغن أثار غيرة موتسارت ؛ وفى التعاليم كان صاحب الفضل فى تكوين فيبر وميربير ؛ ثم أضحك مانهايم وهو ممثل للبابا بلبسه الجوارب الطويلة الزرقاء وبجماله كتاب صاواته مع موسيقاه ، وبجعله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلواته .

وكان أوركسترا مانهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقنين ،

يقودهم بكفاية كرسيتيان كانا بيثس معلماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان .
وقد أثر عن اللورد فورد ابس قوله إن ألمانيا تبرز سائر الأمم لسببين : الجيش
البروسي وأوركسترا ما نهايم . ويليه شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليزج .
وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوى ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة
كونشرتوات فى برنامج واحد . والقوم يحيونها فى كل مكان - فى المسارح
والكنائس والجامعات والقصور والحانات والمتنزهات . ونافست السمفونية
الآن الكونشرتو فى البرتوار الأوركستراالى ، وما وافت سنة ١٧٧٠ -
حتى قبل مجىء هايدن - حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرقى ألوان الموسيقى
الآلية (١٠٧) .

ونصف المؤلفين الموسيقيين فى هذه الحقبة منحدرون من قلب يوهان
سبستيان باخ القوى وصلبه المكين . أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال ،
أحرز اثنان منهم - فلهم فريدمان وكارل فليب إيمانويل - سمعة دولية .
وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلاً برز فى عالم الموسيقى منهم اثنان هما
يوهان كرسستوف فريدرش ويوهان كرسيتيان . ثم أنجبت يوهان كرسستوف
فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهم فريدرش ارنست باخ ؛ وهكذا
أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمنوا لهم مكاناً فى تاريخ
الموسيقى . يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنست باخ ،
درس على الأستاذ فى ليزج ، وأصبح رئيساً لفرقة المارتلين فى فايمار ،
وترك عدة مؤلفات موسيقية ليحجر عليها النسيان ذبوله .

أما فلهم فريدمان باخ فقد ولد فى فايمار . والقسم الأول من مؤلف
أبيه « الكلافير الوسيط » كتب لتعليمه . وقد سار حثيثاً فى دراسته ، ولم
يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى . فلما بلغ الثالثة والعشرين
عين عازفاً اللارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن ، ولما كانت واجباته فى هذه
الوظيفة هيئة فقد ألف عدة صوناتات وكونشرتوات وسمفونيات . ثم ازداد
راتباً وشهرة حين اختير (١٧٤٦) عازف أرغن فى كنيسة ليفراون
بهاله . وأقام هناك ثمانية عشر عاماً ، ومن هنا تلقب «باخ هاله» . وكان
مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى . ثم استقال فى

١٧٦٤ ، وظل عشرين عاماً يهيم متنقلاً من بلد إلى بلد ، ويقوم بالجهد أوده بالعزف في حفلات موسيقية وبتعليم التلاميذ . وفي ١٧٧٤ استقر في برلين حيث مات في ضنك عام ١٧٨٤ .

وكان كارل فليب إيمانويل باخ أعسر ، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو . وفي ١٧٣٤ حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت ، وهناك حظى بصحبة جيورج فليب تليمان ، الذي كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه . وفي ١٨٣٧ عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليم الأول ملك بروسيا . ولما علم بأن ولي العهد فردريك يحب الموسيقى ، قصد راينزبرج وقدم نفسه إليه دون أن يظفر بشمرة عاجلة ؛ ولكن في ١٧٤٠ عينه فردريك ، الذي أصبح الآن ملكاً ، عازفاً على الصنج في أوركسترا الكنيسة ببوتسدام . ولكنه ضاق بمصاحبة ناي فردريك الهوائي المزاج وقبول سلطته الملكية في الموسيقى . وبعد أن قضى في الأوركسترا ستة عشر عاماً ، اعتزل ليفرغ للتعليم . وقد حدد كتابه « بحث في العزف الحقيقي على الكلافير » (١٧٥٣ وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة ، وكان لهذا الكتيب الفضل في اكتساب هايدن البراعة الفنية في العزف على البيانو ، وبسببه قال موتسارت عن « باخ برلين » هذا : « إنه أبونا ، ونحن صديقه ؛ والذين يعرفون منا أي شيء على وجهه الصحيح ، فإنما تعلمناه منه ، ووجد ذلك الطالب الذي لا يعترف بهذا » (١١٨) . وقد خرج إيمانويل في مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطي ، مؤثراً تناوياً متجانس الصوت ونحواً ميلودياً أبسط . وفي ١٧٦٧ قبل وظيفة المدير للموسيقى الكنيسة في همبورج ، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة الباقية في أمله . وفي ١٧٩٥ جاء هايدن إلى همبورج ليراه ، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين .

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفي جامعة ليبزج ، ثم عين في الثامنة عشرة (١٧٥٠) موسيقار الحجر في بوكسبورج ، لفلهم كونت شاومبورج - ليه . وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى . أما الحدث العظيم الذي وقع له في عامه الثامن والعشرين فهو

مجيء هردير (١٧٧١) مبشراً ؛ وقد زوده هردير بنصوص ملهمة للأوراتوربات والكنتاتات ، والأغاني ؛ واتبع يوهان كرسstof أساليب أبيه وروحه ، ثم ضاع في نخضم تغيرات الدهر وتقلباته .

وعلى النقيض منه كان ولاء الإبن الأصغر ، يوهان كرستيان باخ ، لإيطاليا . بعث إلى برلين وهو لايتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه ، وهناك بدل له أخ غير شقيق ، يدعى فلهم فريدمان ، العون وقام على تعليمه . وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا ، حيث أدى الكونت كافاليري أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني ؛ وقد افتتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية ، فدخل في المذهب الكاثوليكي ، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولاً بمؤلفاته الموسيقية . وفي ١٧٦٠ عين عازف أرغن في كاتدرائية ميلان ، وأصبح « باخ ميلان » . ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية ، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (١٧٦١) ؛ وشكا رؤساؤه الميلازيون من أن رشاقة هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكاتدرائية . فنقل يوهان كرستيان مقامه إلى لندن (١٧٦٢) ، حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد . وما لبث أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا ، ورحب بالصبي موتسارت ذى الأعوام السبعة عند مجيئه إلى لندن في ١٧٦٤ ، وراح يلهو معه على البيانو . وأحب الصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن ، وأخذ عنه الكثير من الألماعات في تأليف الصورناتات والأوبرات والسمفونيات . وفي ١٧٧٨ ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبراه « أماديس الغالين » ، وهناك التقى ثانياً بموتسارت ، وكان ابتهاج في الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً . كتب فولفجانج لأبيه يقول « إنه رجل أمين ينصف الناس ، وأنا أحبه من كل قلبي » (١١٩) .

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ الذي مات في ١٦١٩ ، وانتهاء بفلهلم فريدرش إرنست باخ الذي مات في ١٨٤٥ ، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة . فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخين

المعروفة أسماءهم من أقرباء يوهان سبستيان ، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين ، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم في قاموس للموسيقى^(١١٠) . وقد ظفر عدد من الأبناء في حياتهم بصيت ذائع وشهرة فاقت ما تمتع به يوهان سبستيان . ولا يعنى هذا أنهم احتكروا الشهرة الموسيقية ، فالموسيقيون الأفاضل كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء ، ثم يجر عليهم النسيان ذيوله حين يموتون ؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارك فريدرش فاش وكريستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ في ذيوع اسمهم .

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة فى التطور الموسيقى . فامتداد مساحة البيانوا وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية ؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية ، وتقلص هيمنة الكنيسة ، بعدا بالمؤلفين عن يوليونيوية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونييات خلفائه الأسهل تذوقاً . وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تفوق الميلوديا حتى فى قطع الموسيقى الآلية ، بينما أحدثت الليدات ، بحركة مضادة ، تعقيداً جديداً فى الأغنية . وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها فى جلوك ، الذى أراد إخضاع الموسيقى للدراما ، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى . وعلى درب آخر طورت الثورة « المسرحية الغنائية » ، التى بلغت أوجها فى « الناي السحري » . وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لآلة منفردة واحدة وأوركسترا ، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكى فى كارل فليب إيمانويل باخ وهايدن ، وتطورت الرباعية إلى السمفونية . وهكذا تهيأ كل شىء لبيتهوفن .

فوق كل هذه الحياة المنوعة ، حياه السياسة والدين والصناعة واللهم والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبر والأثم - كان يابوح طيف البطل الشائخ الذى لقبته ألمانيا « الشيخ فرتز » - لا حياء بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

تيوتوني في عصره . فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركستراه ، بل حسد قلم فولتير وتاقت نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً . وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته : سبعة في التاريخ ، وستة في الشعر ، وثلاثة في الأبحاث العسكرية ، واثنان في الفلسفة ، واثنى عشر في الرسائل ، كلها بالفرنسية . أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال ، ولم يعد القراء يذكرونها . ولكنه كان من كبار المؤرخين في جيله . ففي بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه - « مذكرات في تاريخ أسرة براندنبورج » (١٧٥١) . وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين : « لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول ، ونظرت إلى الأمراء والملوك والأقرباء نظري إلى أناس عاديين » ، (١١١) ولكنه ارتفع إلى ذروة الحياسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فردريك وليم .

أما رائحته الأدبية فهي « تاريخ عصرى » الذي سجل حكمه . وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ - ٤٢) ، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره . وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن ، ربما متأثراً بفولتير - وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » و « مقاله في الأعراف » وقد اعتذر عن تضييعه حيزاً في كتابه على « بلهاء يلبسون الأرجوان ، ودجاجلة يحملون التيجان . . . أما تتبع الكشف عن الختائق الجديدة ، وتفهم أسباب التغيير في الأخلاق والعادات ، ودراسة الطرق التي قشعت بفضلها ظلمة الهمجية من عقول الناس - فهذه بالتأكيد موضوعات جديرة بأن تشغل جميع المفكرين » . (١١٢) وقد اثنى على هوبز ولوك والمؤلفة في انجلترا ، وعلى توماسيوس وفولف في ألمانيا ، وفونتينيل وفولتير في فرنسا . « هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالوالدين ضربة قاضية . وبدأ الناس يمحسون ما كانوا يعبدونه بغبابة ، وأطاح العقل بالخرافة . . . وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين ، وهي العبادة البسيطة للكائن الأعظم » . (١١٣) وإذ كان فردريك يحتقر الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسي ، فإنه فضل ملحمة فولتير « الهزياة » على الألياذه ، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس ،

وبين بوسويه وديموستين . وسخر من لغة ألمانيا وأدبها ، وامتدح فيها المعمارى ،
وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا ، فقال انه أحس أن لرجل الدولة أن
ينتهك الوصايا العشر أن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية « فخير أن يحنث
الملك بعهده من أن يهلك الشعب » (١١٤) - وهذا الهلاك - كما أمل أن
تصدقه - هو الخطر الذى تهدد بروسيا في ١٧٤٠ ؛ وقد اعترف بأنه اعترف
أخطاء كثيرة في قيادة جيشه ، ولكنه رآه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره
مولفتر . وهذان المجدان في جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل
الكتابات التاريخية عن أوروبا الحديثة قبل جبون .

وما إن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فردريك
على كتابة « تاريخ حرب السنين السبع » . وكان كقيصر يتطلع إلى أن يكون
خير مؤرخ لحملاته ، وكقيصر تحاشى الحرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب ،
وهنا أيضاً حاول - ربما بعذر أفضل - أن يبرر المبادرة الجريئة التى بدأ بها
الحرب . وقد امتدح ألد أعدائه ، ماريا تريزا ، فى كل ما يتصل بحكمها
الداخلى ، أما فى علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكبرة « التى »
استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق « (١١٥) ووسط
سجل الحملات ، المحامد إلى حد لا بأس به ، توقف ليندب أمه التى ماتت
فى ١٧٥٧ وشقيقته التى لحقت بها فى ١٧٥٨ . والصفحة التى وصف فيها
فلهلمنية واحدة من الحب فى بيداء خربة من الحرب .

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون : « ان فى طبيعة
البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة . وحماقات الآباء تضيع هدراً على الأبناء ،
وكل جيل لا بد مقترف حماقاته » (١١٦) « كل من يقرأ التاريخ بإمعان
يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر ، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء
الممثلين » (١١٧) . ولكننا حتى لو استطعنا أن نتعلم ، فإننا سنظل عرضة للمصادفة
التي لا يمكن التنبؤ بها . « إن هذه المذكرات تقنعنى أكثر فأكثر بأن كتابة
التاريخ إن هى إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ . فكل شىء يدور
حول هذين الموضوعين » (١١٨) .

وقد حاول مرتين (١٧٥٢ و ١٧٦٨) في « وصية أخيرة » أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة . فحثهم على دراسة أهداف الدول المختلفة ومواردها ، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها . وحذا حذو أبيه في تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش ، وحذر خلفائه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل ؛ وتنبأ بالمتاعب السياسية التي ستتحقق بفرنسا لسفهاها المالي ؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بحفز إنتاجية الاقتصاد . وينبغي حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام -- رغم أن « جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها تركز على نسق من الخرافة غير معقول قليلا أو كثيراً (١١٩) . إمامسلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة ، ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة . وما دامت بروسيا في خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والامبراطورية النمساوية المجرية ، فإن من واجب الملك أن يغتنم أى فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها -- ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبوميرانيا السويدية : « أن أول شغل شاغل للأمير هو أن يصون سلطته ، أما الثانى فهو أن يوسع رقعته . وهذا يقتضى المرونة وسعة الحيلة . . . وستر المتاعم الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتى اللحظة المواتية . تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء » (١٢٠) .

وينبغي أن يعد الملك خلفه للحكم ، فتهيء له التعليم على يد رجال مستنيرين لا رجال كنسيين ، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بنزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة فى يد الكنيسة (١٢١) . وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلا ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسئوليات الدولة . « ذلك ما رأيته ، وإذا استثنيت ماكة المجر (ماريا تريزا) ومملك سردينيا (شارل إيمانويل) ، فإن كل ملوك أوروبا ليسوا سوى بلهاء مشهورين » (١٢٢) . وقد كتب هذا وإليزابث تحكم روسيا . وكانت « وصية » ١٧٦٨ أكثر تأديباً ، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو همتها ، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة فى أوروبا (١٢٣) .

فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل -- فردريك

فلهم الثاني - صالحاً لوراثة الحكم . كتب إليه يقول « إننى أشقى من أجلك ولكن على أن أفكر فى الاحتفاظ بما أصنع ، فإن كنت كسولاً خاملاً ذاب فى يديك كل ما جمعته بالجهد والمشقة » (١٢٤) . وفى ١٧٨٢ كتب وقد ازداد تشاؤماً « لو أن ابن أخى لان وتراخى بعد موتى ، لما بقى شىء اسمه بروسيا فى ظرف عامين » (١٢٥) . وقد تحققت النبوءة فى فيينا عام ١٨٠٦ ، لا لأن فردريك وليم الثاني كان رخوا لينا ، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً .

وقد بات فردريك ذاته فى عقده الأخير قاسياً إلى حد لا يحتمل . فانخزل قدراً كبيراً من الحرية التى سمح بها للصحافة قبل ١٧٥٦ . كتب ليسنج إلى نيقولاى فى ١٧٦٩ يقول « إن حريتكم البرلينية تنقلص . . . إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من سخافات ضد الدين . . . ولكن ليرفع إنسان صوته نيابة عن الرعايا ، وضد الاستغلال والاستبداد . . . وعندها ستبين سريعاً أى دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذلاً » . (١٢٦) وكره هرذر وطنه بروسيا ، وانصرف فنكلمان فى « رعب » عن ذلك « البلد المستبد » (١٢٧) . وحين زار جوته برلين فى ١٧٧٨ أدهشته عدم شعبية الملك . ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يضمن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد فى سبيل خدمة الدولة .

وقد برته الحرب كما براه السلم . وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو ، والمغص والبواسير ، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفة . وفى ٢٢ - ٢٥ أغسطس ١٧٧٨ استعرض جيشه السيليزى قرب برزلا و . وفى اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات بردائه العسكرى العادى والمطر يهطل غزيراً ، وعاد إلى مسكنه مبلاً يرتعد من البرد . ولم يستعد عافيته بعدها قط . وفى يونيو ١٧٨٦ أرسل فى طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر . وتوقف عن تعاطى العقاقير التى وصفت له ، وآثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ ، ولكى يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية

وسقوطها» (١٢٨) . وتفاقت أوصابه بالاستسقاء ، وأحدثت القطوع التي أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة . ثم أطبق عليه الالتهاب الرئوى فاكتمل الحصار ، وفي ١٧ أغسطس ١٧٨٦ مات فردريك وهو فى الرابعة والسبعين . وكان قد طلب أن يدفن فى حديقة « صانسوسى » قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب ، ولكن أمر رحيله هذا الذى أصدره على البشرية أغفل ، فدفن إلى جوار أبيه فى كنيسة الحامية ببوتسدام . وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم البروسيين فى يينا قال لقواد جيشه « لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا » (١٢٩) .